بحوث في تاريخ
الحضارة العربية الاسلامية

الدكتور أنيس الأبيض

بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية

جروس برس
طرابلس - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م

جروس برس
طرابلس - لبنان

فاكس: ٧٨٢٧٩٠ ٢١٢٤ ٠٠١

المقدمة

إذا كان من البديهي القول أن إسهام الأمم قد أفضى إلى إرساء قواعد الحضارة الإنسانية، فإنه من الضروري التأكيد على أن الحضارة العربية الإسلامية التي وهي وليدة التعاليم الإسلامية السمحة، الإنسانية النزعة، قد أعطت هذه الحضارة بعدًا إنسانياً شاملاً ارتكز على التأكيد بوحدانية الله تعالى وعدم الاشراك به، وصقل شخصية الإنسان المسلم، من خلال عقيدة الاسلام وتشريعه الرائد. من هنا لا بد لنا حين ندرس حضارة الاسلام أن نربطها بالأساس الذي قامت عليه، ألا وهو العقيدة الاسلامية، كذلك لا بد لنا أن نفهم التاريخ العربي الاسلامي على ضوء هذه النظرة. وليس التاريخ والحضارة إلا مظهران من مظاهر الاسلام كنظام عالمي متكامل، وإن العصور الزاهرة من تاريخ الاسلام تميّزت بالانتاج الحضاري الرائع، كانت أيضاً متميزة بالروح القوي الذي جعل التقدم العلمي يواكب نداء المآذن، زاحفاً في ركب متناسق.

وإنّ العبقرية العلمية التي حقق بها المسلمون الأولون هذه العجائب والإنجازات في شتى ميادين العلم والمعرفة كانت تصدر عن أفق مُنير مُلتزم بالإيمان بالله تعالى وبمثل الإسلام النيرة، لذلك لا نعدو الصواب، إذا ما ربطنا بين التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وبين مقدار عمق هذه العقيدة الإسلامية وسيطرة أنظمتها على المجتمع الإسلامي، وبين ذلك كله، وبين مجريات الأحداث والإنتاج العلمي[1] منه

(1) عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الإسلامية في الأندلس، ص ١٤

أردت من هذه الأفكار ليس التعريف فقط بقيمة الحضارة العربية الإسلامية وفضلها على البشرية، إنما قصدي أيضًا، التفتيش عن الوسائل التي تمكن المسلمين من إعادة تفعيل مسيرة هذه الحضارة، والتماس أفضل الطرق لبلوغ الأهداف والأمنيات.

عناوين لا بُدّ من تلمس الطريق الهادف للوصول إليها! إنشاء جيل واعٍ ومثقّف، توفير البيئة الثقافية الفاعلة العمل على إيجاد الترابط العُضوي بين الواقع الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية، وبين ما حفل به ماضيها من مآثر حضارية مُميّزة أسهمت في رفد الحضارة الإنسانية بشتى أنواع العلوم والمعارف، إيجاد المؤسسات الثقافية الفاعلة التي توقظ النيام والغافلين، وتوفّر لهم سُبل التزوّد النقي والارتقاء إلى عالم الإبداع والإنجاز، لتكون الصلات متناسقة بشكل يظهر فيه اندفاع المسلمين إلى العلوم والاهتمام بها، مساوياً لنشاطهم في تحقيق الأهداف الأخرى للإسلام، لأن العمل لا يُفيد بالإنزواء ولا يُنفع بالعزلة، ولا يجدي بالتحصّن في الصوامع. والإسلام دعوة للحق في كل مجال وعلى كل صعيد، والبقاء في غرف خاصة، وفي أماكن العبادة طريقة لم يعهدها المسلمون الأوائل، ولم يعرفها المصلحون، وإنما سار عليها أولئك الذين قبلوا أسهل الأمور وأخفّ الجهاد وأضعف الإيمان.

لقد شدّتني دراسة الجوانب المختلفة للحضارة الإسلامية من خلال الإنجازات العلمية والفكرية التي راد فيها علماء وأعلام المسلمين عبر التاريخ، فإذا هي تمثل محطات تاريخية حضارية لعظمة الفكر الإسلامي الإنساني النزعة والمتعدّد الجوانب الثقافية، والذي حصّن العقل الإسلامي ومنعه من الوقوع فريسة للتيّارات الفكرية المنحرفة وجعله يقف شامخ الرأس يفخر بإنجازاته العلمية والحضارية في كل أرض وطأتها أرض المسلمين.

وما كان لأقدام العرب المسلمين الفاتحين أن تثبت في مشارق الأرض ومغاربها، لو لم يكن المسلمون الأوائل يحملون بشائر فكرٍ جديد وحضارة ترّه جسدتها الروح الجديدة التي سادت تلك البلاد، وأفسحت بالمجال لظهور ثُلّةٍ كبيرة ومتنوّعة من العلماء الأفذاذ الذين أثْرُوا الفكر الإنساني بإنجازاتهم

ومُصَنّفاتهم القيمة في مختلف العلوم والمعارف.

لقد جاء هذا الكتاب ثمرة لجهد دؤوب ومتواضع، حاولت من خلاله إبراز أهمية الإنجازات العلمية والحضارية التي قدمتها الحضارة العربية الإسلامية للفكر الإنساني العالمي عبر أجيال متعددة.

ويقيني أنّ مواضيع هذا الكتاب وإن لم تكن كافية لدراسة كل جوانب الحضارة الإسلامية، إلا أنّها تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن أهمية الدور الذي لعبته في صياغة حضارة اليوم، وإعطائها المقومات الخلقية التي تُشكل العامود الأساسي في تطويرها وتفعيل دورها الإنساني في كل بقاع المعمورة...

أنيس مصطفى الأبيض

القلمون في ٥ شعبان ١٤١٤

١٧ كانون ثاني ١٩٩٤

الفصل الأول

الحضارة العربية الإسلامية أساس للحضارة الأوروبية

كان ظهور الإسلام إيذاناً بمولد الدولة العربية الإسلامية، وأصبح العرب رسل الحضارة الإسلامية وبدأوا يدخلون التاريخ من أوسع أبوابه، وعملت الدولة الوليدة على نشر الإسلام والثقافة العربية، فكانت الفتوحات العربية الإسلامية في عهد الخليفتين الأولين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فتم القضاء على الدولة الفارسية، واستولى العرب المسلمون على الشام ومصر من الدولة البيزنطية، ثم توالت الفتوحات في العصر الأموي، فاستولى المسلمون على بقية شمال إفريقيا، ثم غزوا القارة الأوروبية، فإستولوا على شبه جزيرة أيبيريا وجنوب فرنسا، واستمر العرب المسلمون في غزو أوروبا حتى استولوا على جزر البحر المتوسط الأوروبية، وإيطاليا، ونجحوا في تثبيت أقدامهم ونشر دينهم وحضارتهم في أرجاء كثيرة من القارة الأوروبية.

وكانت أوروبا قبل الفتح الإسلامي، بإعتراف جميع المفكرين الأوروبيين. تسبح في الظلام، وتعاني من التأخر والفوضى، فنشر العرب بها حضارتهم، وأبدلوا ظلام أوروبا بنور من العلم والعرفان والمدنية. وأرسوا قواعد حكومة عادلة، تحرص على تحقيق الحرية والمساواة وتعمل لصالح رعاياها من الأوروبيين وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين، يلقنوهم أسس الحضارة العربية الزاهرة. مكث العرب في صقليه وجنوب إيطاليا ثلثمائة سنة تقريباً، فاستعرب أهل تلك المناطق وأصبحوا يتكلمون اللغة العربية، واستولى المسلمون على نصف فرنسا

To: www.al-mostafa.com

المعاصرة وتركوا أثراً عميقاً في اللغة والدم.

أما تاريخ العرب في إسبانيا فهو معروف، فقد كتبت إسبانيا العربية الإسلامية صفحة من أروع صفحات التاريخ الحضاري والعقلي لأوروبا في العصور الوسطى وكانت الشعوب المتكلمة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر حملة مشاعل الثقافة والحضارة في ربوع العالم أجمع، وكانت الحضارة الإسلامية أساس النهضة في أوروبا. وأوفدت دول أوروبا بعثات علمية إلى الأندلس العربية لتتلقن العلوم والأفكار العربية مثلما ترسل الدول العربية اليوم بعثاتها إلى أوروبا وأمريكا[1].

نتائج سيطرة العرب المسلمين على الجزر الأوروبية

سيطر العرب على كريت شرقاً، وصقليه ومالطة وقوصرة في الوسط، وجزر البليار (ميورقة ومينورقة) غرباً، ثم على جزيرتي سردينية وقبرص. فتم للمسلمين السيطرة التامة على البحر المتوسط. وقد أشار (ديبل) بالحكم العربي في صقليه فقال: «إن العرب حملوا معهم إلى جزيرة صقليه مظاهر فنهم وقناطرهم العالية الجميلة، وفسيفسائهم المعمولة من الرخام الملون، وصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم، وكلها أعمال خاصة بالمترفين وأرباب النعيم. ولما سقطت بلرم في أيدي العرب سنة ٨٣١م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة، فلما غدت عاصمة أمراء العرب المسلمين برزت حضارتها وفنونها فأصبح لها حكومة ذات مجد ورُقي[2] وتحدث (آماري) في كتابه (المسلمون في صقليه) عن الحكم العربي لصقليه فقال «إن من غُلِبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا في راحة وسرور على عهد الأمراء العرب المسلمين، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة».

إهتم الولاه العرب بالإصلاحات، ونشروا ألوية العدل وعنوا بحفر الترع

(١) علي حسن الخربوطلي: العرب في أوروبا ص ٣-٤-٥

(٢) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ٦٢-٦٦

وترقية الزراعة، فزادت ثروة سكانها، وعمّت فيها الخيرات، وأفتن أهلها في ضروب الترف والنعيم.

أخرجت صقلية جملة من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والأطباء والفلاسفة وكان في طليعتهم أسد بن الفرات، وهو من أصحاب مالك، وأسد بن الحرث صاحب الأسديات في الفقه، والقاضي ميمون بن عمر. وابن حميدس الصقلي الشاعر المبدع، ومن رجال صقليه أبو عرب الصقلي وابن بشرون وابن الفحام، والشريف الأدريسي، وابن ظفر، وابن القطاع صاحب الدرة الخطيرة، والحسن بن يحيى ا لمعروف بابن الخزاز وهو صاحب تاريخ صقليه وابن سابق، وعيسى بن عبد المنعم، وهو من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة وأبو عبد الله الصقلي الفيلسوف، وعبد العزيز الأغلبي الكاتب، والمازرى صاحب التآليف المشهورة، وغيرهم كثير. وقد تحدث (رينالدي) عن التأثيرات العربية في جزيرة صقليه فقال: «إن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في الإيطالية التي تفوق الحصر دخلت اللغة الإيطالية لا بطريق الإستعمار العربي «بل بطريق الحضارة التي كثيراً ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة. وقد اضطرت مدينة جنوة أن تؤسس سنة ١٢٠٧م مدرسة لتعليم اللغة العربية، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية في لغة هذه المدينة، وفي اللغات العامية في جميع المدن الإيطالية التي كانت تتجر مع الشرق وصقليه، وقد دخلت إليها مع التجارة العربية، ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيراً منها. والهندسة القوطية هي في الحقيقة الهندسة العربية كما أن أسماء الموازين والمكايل والألفاظ البحرية في اللغة الإيطالية من أصل عربي إن النغمة العربية التي هبّت نسماتها الزكية على ديار الإيطاليين علمتهم كيف يحترمون الواجبات بعد أن كان معظمهم يشتغل بقطع الطرق والنهب والسلب. وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة وشتى العلوم بعد أن كانوا أميين يفتك الجهل المدقع في صفوفهم. وعلمتهم الصناعات المختلفة وأصول الزراعة والحياكة.

والزائر اليوم للمكتبة الكبرى في الفاتيكان بمدينة روما بإيطاليا ليجد الألوف المؤلفة من الكتب الخطية القديمة وهي كلها من تأليف علماء العرب.

وفي بالرمو أنشأ العرب أول مدرسة للطب، وما عُهِدَ مثلها في جميع أوروبا بل إن مدارس الطب في الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية العربية بأعوام. ومنها انتشر الطب في بلاد إيطاليا، وساعد على ذلك أن البابوات كانوا قد رحلوا إلى أفينيون من أرض فرنسا فخلا الجو للعلم العربي الإسلامي، وامتد إلى أرجاء إيطاليا(٣).

شاهدت صقلية في عهد النور مندبين إزدهاراً للثقافة العربية الإسلامية، وعلى الرغم من أن «روجر الأول» نفسه كان مسيحياً غير مثقف إلا أنه كون القسم الأكبر من جنده المشاة من العرب المسلمين، وكان يرعى الثقافة العربية، وأحاط نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجمين والأطباء، وسمح للمسلمين بالحرية الدينية التامة، وأبقى كثيراً من الموظفين العرب في مناصبهم، وكان بلاطه أشبه ببلاط العرب منه ببلاط أمراء الغرب. وقد أدخل العرب إلى صقلية زراعة قصب السكر والكتان والزيتون.

وكان روجر الثاني (١١٣٠-١١٥٤م) يرتدي الملابس العربية، ويطرز رداءه بحروف عربية، ونقش على سقف الكنيسة التي بناها في بالرمو نقوشاً كوفية. كما احتضن روجر الثاني الأدريسي، أعظم الجغرافيين ورساميّ الخرائط في العصور الوسطى الذي اتخذ من مدينة بالرمو مقراً لنشاطه تحت رعاية روجر الثاني في حين احتفظ الأمبراطور فردريك الثاني بعدد كبير من الفلاسفة العرب المسلمين من الشام وبغداد.

فضل حضارة العرب على أوروبا:

من أبرز المفكرين الذين تحدثوا عن أثر الحضارة العربية في حضارة أوروبا «جو ستاف لوبون» الذي وضع كتاباً قيماً بعنوان (حضارة العرب) أنصف فيه العرب وسلط الأضواء على الأسس العربية للحضارة الأوروبية الحديثة ومن آراء «لوبون» في هذا الصدد قوله: كان تأثير العرب على الغرب عظيماً، وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق،

(٣) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ٦٩-٧٠-٧١-٧٢

ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلا إذا تصور حالة أوروبا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة العربية، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد، يوم كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في الغرب عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يُفاخرون بأنهم أميّون وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين[٤].

ويرى (لوبون) أيضاً أن الحضارة العربية لم تدخل إلى أوروبا بنتيجة الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع، بل دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا. ويُقارن (لوبون) بين إسبانيا العربية وسائر أرجاء أوروبا فيقول: «تمتعت إسبانيا بحضارة سامية بفضل العرب، بينما كانت بقية أوروبا غارقة في ظلام وتأخر. ولو سار الغرب تحت راية العرب لتسامت منزلته، ولورقت أخلاق أهله ما وقعوا في الحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمي وديوان التحقيق وكل ما شاكل ذلك من المصائب التي أغرقت أوروبا بالدماء عدة قرون»[٥] وما عرف المسلمون ما يشبهها في أرضهم.

واعترف المؤرخ (رينو) في كتابة (تاريخ غزوات العرب) بفضل العرب على حضارات أوروبا فقال: «إن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ إلا منذ القرن الثاني عشر حيث أفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقدتهم. ونفضوا عنهم الخمول، ووجدوا ضرورة الإشتراك في الحضارة العربية، فأخذ المسيحيون في فرنسا وما جاورها يؤمون إسبانيا لترجمة الكتب العربية وأصبح العرب الأمثلة العليا للشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق»[٦].

وقال (ساريتو) في كتابة (الحضارة): إن ما أتت به الحضارة العربية في باب العلم، ولا سيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت به في هذا السبيل الدولة البيزنطية إذ أن الحضارة البيزنطية لم تأت بفكر جديد[٧].

---

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب نقله الى العربية أكرم زعيتر ص ٥٦٦
(٥) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ١٢
(٦) علي حسن الخربوطلي: المرجع السابق ص ١١٤
(٧) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ١١٤-١١٥

وأشار المفكران (لاميس) و (رامبو) في كتابهما (التاريخ العام) بالحضارة العربية وآثارها فقالا: إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة في أفريقية وآسيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصناعاته واختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان. ومن مجموع هذه المواد المختلفة التي صبّت فتمازجت نماذجاً متجانساً، أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهن، وهي ذات وحدة خاصة وصفات قائمة»[٨].

وفي كتابة «قانون التاريخ» La loi de l'histoire يقول: «جوليفه كستلو» «كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول ﷺ عظيماً جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لإنتشار الإسلام، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، وقامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم، خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف بل بما أحرزوا في أساليب العلم التي إستخدموها بعزيمة وقادة للغاية. وكانت المدنية العربية قصيرة العمر، إلا أنها باهرة الأثر، وليس لنا إلا إبداء الأسف على إضمحلالها، وإن أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من إرتقاء في القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي «وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى وإن أوروبا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية وأمام العلم العربي والآداب العربية. وقد إنقضت أربعة قرون لا حضارة فيها غير الحضارة العربية، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق»[٩].

---

(٨) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ١١٥. نقلاً عن محمد كرد علي الاسلام والحضارة العربية

(٩) فيصل حسون: الاسلام والحضارة ودور الشباب المسلم: المجلد الثاني: أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب المسلم: الرياض ١٣٩٩/١٩٧٩ ص ٢١٦

وفي كتابة أصول أوروبا والمدنية الأوروبية Les origines de l'Europe et de la civilisation Européenne يقول كريستوفر داوسون كانت الحضارة العباسية ولسانها العربية ودينها الإسلام، مُكَمِلةً بمظهرها العقلي للحضارات القديمة التي مثلتها مملكة العباسيين الواسعة. ويصح ذلك على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلم العربي اللذين ارتقيا في ذلك العصر وأثرا تأثيراً عظيماً في أهل القرون الوسطى عامة. ولقد كانت الحركة العلمية في العالم في أكثر من أربعة قرون بأيدي الشعوب الإسلامية. وعن العرب أخذت أوروبا الغربية أصولها العلمية ويرجع العمل العلمي والفلسفي في العالم الإسلامي إلى العرب وإلى الإسلام نفسه[10].

ويضيف داوسون قائلاً: «إنا اعتدنا اعتبار مدنيتنا كأنها تألفت من جوهر الحضارة الغربية حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر في أوروربا الغربية لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غربية عنها، وأن البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً، وكادت النصرانية في الغرب والإسلام في الشرق يكونان شيئاً واحداً في زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية وكانت أسبانيا والبرتغال وصقلية تؤوي حضارة إسلامية زاهرة، هكذا كان الحال في القرن العاشر الميلادي، وقد فعلت هذه الحضارة فعلها في ترقي العالم في القرون الوسطى، فانتشرت الثقافة الغربية في ظل حضارة الإسلام وإستطاعت النصرانية في قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة، أن تأخذ طرفاً من التراث العلمي والفلسفة اليونانية وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر، ولم يتم إلا عقبى الحروب الصليبية وبعد فاجعة المغول الكبرى، حين تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإسلامية، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية»[11].

هكذا كان الإسلام منطلق الحضارة العَربية والإطار الذي رسم معالمها والمعين الذي نهلت ـ وستظل إلى الأبد تنهل ـ منه، وهو بالتالي صاحب الفضل الأول والأكبر على الحضارة الغربية الأوروبية التي انفردت في المرحلة الأخيرة،

(١٠) فيصل حسون: المرجع نفسه ص ٢١٧

(١١) فيصل حسون: المرجع السابق ص ٢١٧

بزمام التقدم الإنساني وإحتكرت ظواهر المدنية والإزدهار العلمي الإقتصادي، ولولا الإسلام لما إستطاعت البشرية في كل مكان الوصول إلى ما وصلت إليه، وما الزعم بأن العقيدة الإسلامية هي سبب الشعوب والأمم التي تؤمن بها، إلا محض افتراء رخيص وتجديف باطل تدحضه إعترافات كبار مفكري الغرب نفسه من لم يأكل الحقد على الإسلام قلوبهم، وممن لم يضع التعصب غشاوة على أبصارهم تعيهم عن رؤية الحقيقة وتجعلهم ينكرون أن الإسلام هو نظام الحياة الأكمل الذي لن تجد البشرية ـ مهما أجهدت أجيالها بالبحث ـ بديلاً عنه أو نظيراً له يحقق للإنسانية الخير ويوفر السعادة ويؤمن الرخاء والإستقرار، حتى أن الكاتب الأيرلندي الشهير برنارد شو لم يتردد بعد أن درس الاسلام دراسه معمقة عن الجهر بالقول «إني أرى في الإسلام دين أوروبا في القرن العشرين» بل هو القائل: «أعتقد أن رجلاً كمحمد ـ ﷺ لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحلّ مشكلاته على وجه يكفل للعالم السعادة المنشودة» وما أروع ما هتف به «غوته أديب الألمان وكاتبهم الكبير متسائلاً: «إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا تكونوا مسلمين؟»[١٢].

المسلمون في الأندلس:

عندما فتح المسلمون بلاد الأندلس وصلوا إلى جبال البرانس في أقصى شمالها، وعاشوا فيها نحو من ثمانية قرون شيدوا فيها لأنفسهم العمائر المختلفة من مساجد وقلاع وقصوراً كما أنشأوا الصناعات المختلفة، ولا يدخل أحد الشك في أن حضارتهم كانت أرقى من حضارة أهل البلاد فتركت آثارها هناك، وخطت بالأندلس نحو التقدمُ خطوات واسعة. والواقع أن تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس كان قوياً وعميقاً سواء خلال فترة وجود المسلمين في البلاد أو بعد خروجهم منها، ففي الحالة الأولى، كان بعض الإسبان ممن عاشوا في ظل الدولة الإسلامية، ردحاً من الزمن، قد أخذوا يهاجرون حاملين معهم بذور الحضارة الإسلامية وأسرار الفنون الزخرفية، وقد زرع المستقرون هذه البذور ونشروا تلك الأسرار في البلاد التي استقروا فيها.

---

(١٢) فيصل حسون: المرجع نفسه ص ٢١٨

وفي الحالة الثانية، أي بعد خروج المسلمين من الأندلس، فإن مظاهر هذه الحضارة الإسلامية بقيت شاهداً على روعة الإنجازات الضخمة التي حققها الوجود الإسلامي، مما أتاح الفرصة للشعوب الأوروبية للإستفادة من هذه الانجازات كما أنه قد نشأ على أكتاف المستعربين والمدجنين المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد خروج المسلمين منها، الطراز الوطني الإسباني الذي استحدثت منه الفنون الأوروبية الشيء الكثير.

هذا وقد لعبت التجارة دوراً هاماً في تحضير أوروبا على يد التجار المسلمين. وما العثور على العملات والنقود الإسلامية في آماكن مختلفة من أوروبا، إلا دليل على تغلغل التجارة الإسلامية في أوروبا، وهذا ما نراه من خلال وجود بعض الكلمات ذات الأصل العربي في اللغات الأوروبية مثل كلمة Chèque المأخوذة من كلمة صك العربية وكلمة Magasin المأخوذة من كلمة مخازن العربية. كما نلاحظ في بعض المصنوعات أسماء عربية الأصل، فعلى سبيل المثال، المنسوجات التي كانت تحتل مكانة عالية عند الأوروبيين في العصور الوسطى، إذ أثارت في نفوسهم دهشة عظيمة عندما قارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه أنوالهم. وراحوا يتساءلون عن موضع السحر في هذه المنسوجات الإسلامية: أهو في دقة النسيج أم هو في جمال الزخرفة، أم هو التنسيق بين الألوان أم هو في هذه جميعاً. وقد أقبلوا عليها وسموها في لغاتهم بأسمائها العربية سواء كانت هذه الأسماء مستمدة من طبيعتها مثل القماش الذي أطلقوا عليه كلمة Chiffon فقد كان في الأصل يشف عما تحته فأخذوا هذه الكلمة في كلمة شفاف العربية ومثل كلمة Ricano المشتقة من كلمة رقم العربية. أو كانت هذه الأسماء مستمدة من البلاد التي اشتهرت بها مثل الجراندين Gérandine الذي كانت تنتجه مدينة غرناطة، ومثل Tabis التابس المأخوذ من كلمة العتابي.

وفي صناعة الخزف كان فضل المسلمين عظيماً وقد تعلم أهل الأندلس في العصر الإسلامي معظم أنواع الخزف الإسلامي، وقد أثرت هذه الصناعة أيضاً في صناعة أوروبا ويكفي أن نذكر الغطاء المذهب الذي تعلمه الإيطاليون من الأندلسيين في العصر الإسلامي، ومن إيطاليا ذاعت صناعته في كل أنحاء أوروبا ومن الكلمات التي انتشرت في أوروبا ولها صلة بالخزف الإسلامي كلمة

Albaro المأخوذة من الكلمة العربية «البرنية» التي كانت تطلق على القدور الصغيرة التي كانت تصدر إلى أوروبا من الأندلس حاملة في جوفها النباتات الطبية.

وأبلغ أثر للحضارة الإسلامية في حضارة أوروبا، هو دخول صناعة الورق التي تعلمها مسلمو الأندلس من الشرق الإسلامي ونقلوها إلى أوروبا. وبدأت هذه الصناعة في إيطاليا ثم عرفتها فرنسا وألمانيا وإنكلترا. وقد بدأت في أوروبا صفحات مشرقة بفضل دخول هذه الصناعة إليها. إذ لا يخفى ما للورق من الأهمية في نشر الحضارة الأوروبية وتقدمها. ولولا الورق ما تطورت الطباعة وانتشر الكتاب. وللحضارة الإسلامية فضل آخر على الكتاب الأوروبي يتجلى في فن التجليد الذي تعلمه الأوروبيون. من المسلمين في الأندلس وساروا على نهجه في تغليف كتبهم. وقد قلد فنانو أوروبا الخط الكوفي، فحاولوا كتابة الحروف اللاتينية بصورة تقرب في شكلها العام من صورة الخط الكوفي لا سيما الأندلسي. فظهر بذلك الخط القوطي وكان الفنانون الأوروبيون ينظرون إلى الخط الكوفي على أنه عنصر زخرفي. كما قلد فنانوا أوروبا الأرابسك. وكانوا يستعينون به في الرسم على التحف والمصنوعات المختلفة التي كانت تخرجها أيديهم. كما كانت المشربيات الخشبية مبعث الإلهام لصناع المعادن من الأوروبيين عندما كانوا يصنعون شبابيكهم الحديدية ذات المصبعات أو بعبارة أخرى ذات الحديد المشغول Grills.

مظاهر أثر الحضارة العربية الإسلامية على حضارة أوروبا:

ليس صحيحاً أن الحروب الصليبية كانت سبباً في نقل حضارة العرب إلى أوروبا. وإنما دخلت هذه الحضارة عن طريق إسبانيا، وصقلية، وإيطاليا.

أما في إسبانيا، فلم يكد المسلمون، كما قال لوبون، يتمون فتح إسبانيا ويستقرون بها، حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يبعثوا فيها الحياة فعمروا الأراضي والمدن، وأقاموا المباني الفاخرة،

ووطدوا صلات تجارية وثيقة مع الأمم الأخرى. ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبا زمناً طويلاً.

وقد أصبحت طُليطلة بعد أن استولى عليها «ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥م مركز انتشار الثقافة الإسلامية العربية إلى باقي نواحي إسبانيا وأوروبا، ويرجع الفضل في إدخال النصوص العربية في دوائر الدراسة الغربية إلى (دايموندو) أسقف طليطلة وكبير مستشاري ملوك قشتاله، وكان لفعله أبعد الأثر في مصير أوروبا كما يقول (رينان)[١٣]..

وتولى الأسقف رعاية جماعة من المترجمين والكتاب تعرف بمدرسة المترجمين الطليطلين ترجمت عيون المؤلفات العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والحياة وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، وفيها شروح ومختصرات للفلاسفة المسلمين فضلاً عن مؤلفات الإغريق.

وعندما ذاعت هذه الترجمات للكتب العربية، هرع الكثير من الأوروبيين المتعطشين إلى مناهل العلوم الإغريقية والعربية قاصدين مدرسة طليطلة حيث يترجم لهم أحد المستعربين ما جاء في الكتب العربية إلى الإسبانية الدارجة أو اللاتينية الركيكة[١٤].

يذهب المفكر (راندل في معرض حديثه عن الدور الذي لعبه العرب في العصور الوسطى في نقل العلوم فيقول: «كان العرب في القرون الوسطى يمثلون التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما اليوم ألمانيا الحديثة، وخلافاً للإغريق لم يحتقر العرب المختبرات العلمية والتجارب المصورة. وقد ورثت أوروبا عنهم ما ترغب أن تسميه (بروح بيكون) التي تطمح إلى توسيع نطاق حكم الإنسان على الطبيعة[١٥].

فقد حفظ المسلمون في الأندلس في القرن العاشر الميلادي العلوم والآداب

---

(١٣) علي حسن الخربوطلي: المرجع السابق ص ١٢١-١٢٢
(١٤) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ١٢٢
(١٥) علي حسن الخربوطلي: المرجع نفسه ص ١٢٢

التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطنية، ولم يكن في العالم في ذلك الحين بلاد يمكن الدرس فيها في كل مكان، حتى في القسطنطنية، ولم يكن في العالم في ذلك الحين بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية الإسلامية، وذلك خلا الشرق العربي الإسلامي طبعاً.

فإلى الأندلس الإسلامية كان يتوجه الأوروبيون المتعطشون للعلم والمعرفة، وكان منهم (جربرت) الذي أصبح بابا في سنة ٩٩٦م بإسم (سلفستر الثاني) وأراد أن ينشر في أوروبا ما تلقته من علوم العرب لولا ارتفاع أصوات الإحتجاج.

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب للعرب. وعلى كتب العرب وحدها عوّل (روجر بيكون) و (ليونارد البيزي(و (أرنولد الفيلنوثي وغيرهم. وفي ذلك يقول (رينان): «إن ألبرت الكبير مدين لإبن سينا في كل شيء، وإن سان توما مدين في جميع فلسفته لإبن رشد.

ويقول المفكر (بارنتيا): «يبدو ذهن دانتي في مؤلفاته متقبلاً لشتى التأثيرات العلمية والأدبية. وإننا لنجد نفراً من علماء المسلمين ما بين فلكيين وفلاسفة كالبطروجي والفارابي والغزالي وابن رشد مذكورين في كتابين من آثار دانتي. وبقيت ترجمات كتب المسلمين، ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكن القول أن تأثير العرب المسلمين في بعض العلوم «كعلم الطب مثلاً» دام إلى فترة طويلة، فقد شرحت كتب ابن سينا من «مونبيله» من أواخر القرن الماضي.

وبلغ تأثير السلمين في جامعات أوروبا من الإتساع ما شمل معه بعض المعارف التي لم يحققوا فيها تقدماً مهماً كالفلسفة مثلاً. فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعات أوروبا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذاهب هذا الفيلسوف العربي ومذاهب أرسطو. ولم يكن نفوذ العرب المسليمن في جامعات إيطاليا، ولا سيما جامعة بادُو، أقلَّ منه في فرنسا، فقد كان للعرب

فيها شأن كالذي بدا للأغارقة واللاتين بعد عصر النهضة[١٦]. ويمكن القارىء أن يتمثل سعة نفوذ العرب من الإحتجاج الصاخب الآتي الذي قاله الشاعر الكبير بترارك: «يا عجباً، استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموستين، واستطاع فيرجل أن يكون شاعراً بعد أوميرس، فهل قُدّر علينا ألّا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والأغارقة وجميع الشعوب غالباً وسبقناها أحياناً، خلا العرب، فيا للحماقة! ويا للضلال! ويا لعبقرية إيطالية الناعسة أو الخامدة.[١٧] ويشير لوبون الى الدور الحضاري الذي قام به المسلمون في نقل أفكار علماء اليونان وترجمتها في القرون الوسطى مما مكنّ أوروبا من التعرف عليها فيقول «والحقّ أن القرون الوسطى لم تعرِف كتب العالم اليوناني القديم إلّا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ويفضل هذه الترجمة اطلّعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبلّونيوس في المخروقات وشروح جالنيوس في الأمراض السارية ورسالة أرسطو في الحجارة... وأنه إذا كانت هناك أمة تُقرُّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً، ولو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة في الآداب عدة قرون»[١٨] وعرب الأندلس وحدهم، هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد، وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب، العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطنية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس الإسلامية العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم على سبيل المثال جيربرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني، والذي أراد أن ينشر في أوروبة ما تعلّمه فعدّ الناس عمله من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه من الشيطان.

---

(١٦) غوستاف لوبون: المصدر السابق ص ٥٦٩

(١٧) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٥٦٩

(١٨) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٥٦٨

ويشير لوبون إلى أن الغرب قد اقتبس أصول فن عمارته من العرب وينقل عن باتيسْية قوله: «لا يجوز الشك في أنّ البنائين الفرنسيين اقتبسوا من الفن الشرقي كثيراً من العناصر المعمارية المهمة والزخارف في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد. . . ألم نجد في كتدرائية بوى، التي هي من أقدس البنايات النصرانية، باباً مستوراً بالكتابات العربية؟ أوَ لم تقم في أربونة وغيرها حصون مُتوجة وفق الذوق العربي؟. . وينقل عن لونورمان، الذي هو حجة في هذه الموضوعات، أن تأثير العرب واضح في كثير من الكنائس الفرنسية، ككنيسة مدينة ماغلون (١١٧٨م) التي كانت ذات صلات بالشرق، وكنيسة كانده (مين ولوار) وكنيسة غاماش (سوم) وألمح شارل بلان إلى ما اقتبسه الأوروبيون من العرب في فنّ العمارة، وقال: «أرى من غير مبالغة فيما لأمه من التأثير في أمة، وذلك خلافاً لما يُسار عليه اليوم، أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه الفن العربي من المشربيات وشُرف المآذن والأفاريز أدخلوا إلى فرنسة المراقب والجواسق والأبراج والأطناف والسياجات التي استخدمت كثيراً في العمارات المدنية والحربية في القرون الوسطى. ويستشهد برأي «بريس الأفييني» المتخصص في فن العمارة العربي الذي قال «إن النصارى أخذوا عن العرب الأبراج الرائعة التي استخدمها الغرب بكثرة حتى أواخر القرن السادس عشر من الميلاد[١٩].

---

(١٩) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٥٧١-٥٧٢-٥٧٣-٥٧٤

الفصل الثاني

دور المسلمين في تكوين الفكر الأوروبي

الحضارة الإسلامية وعوامل تفوقها العلمي

يبدو أنه كان مقدر للعرب أن يلعبوا دوراً في تاريخ الإنسانية: فهم صنّاع حضارة عربية زاهرة، كانت ولا تزال من أعظم ما عرفته البشرية في تاريخها الحضاري...

يقول العالم الشهير إميل درمنجم: «إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية، نظامها الإجتماعي يقوم على أسرة متماسكة، ونظامها الإقتصادي يعتبر المال وسيلة لا غاية، وتحترم الملكية الفردية غير المستغلّة، وثقافتها تستخدم العقل في كسب المعارف، ولا شك أنّ لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والإجتماعية والسياسية».

فمع بزوغ الإسلام، وتطور الحياة، كثر الإنتاج الإسلامي واتسع في الجوانب المتعلقة بالثقافة والمعرفة والعلوم، وكثر عدد العلماء والمفكرين الذين كان لهم فضل كبير في إرساء الحضارة العربية وسواها من الحضارات.

ولا بد من ذكر العوامل التي ساعدت العلماء العرب، في العصر الإسلامي، على تحقيق هذا التفوق العلمي: أولاً، سادت حرية الرأي العلمي، إذ لم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي، وهذا ما جعل العلماء يتفرغون

لإكتشافاتهم واختراعاتهم دون خوف أو تردد، وكذلك فإنّ رعاية الحكام والولاة للعلم والعلماء، وإنفاقهم بسخاء في هذا المجال، أدّت إلى زيادة عدد العلماء وتزايد إنتاجهم العلمي. ويُضاف إلى ذلك الإستعداد الذهني لهؤلاء، مع الصبر والمثابرة، حتى أنّ أعمال العالِم مهم ومؤلفاته تعدّ بالعشرات في أغلب الأحيان. هذا بالإضافة إلى العديد من العوامل التي ساعدت العلماء على تحقيق هذا التفوق العلمي.

وإن الإطلاع على الحياة العلمية في مدينة بغداد مثلاً، يعطينا فكرة مهمة عن الإنجازات التي حققتها الحضارة الإسلامية سواء في ازدهار العلوم العقلية كالتاريخ والفلسفة والفلك والطب. . . ، وسواء في انتشار المدارس، الذي يُعتبر بحق قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي.

وفي حديثنا هنا عن الجوانب العلمية والثقافية للحضارة الإسلامية، فإننا لن نتعرض لدراسة فروع المعرفة وألوان الثقافة والإنتاج العلمي، وإنما نعتني ببعض جوانبه وظواهره ومعالمه التي تقدم لنا صورة؛ مهما كانت سريعة وعابرة ومختصرة، فهي تفصح عن نوعية تلك الثقافة وتعدد ميادينها وسبر غورها، وإستجلاء آفاقها في شمول واسع، وتبيّن مستواها وأصالتها، مستندة في ذلك على أسس وقواعد نشأت في ذلك الجو العلمي الذي أوجده الإسلام وعاشه مجتمعه المسلم. وتمثل الثقافة الإسلامية والعلوم المتنوعة التي نمت عند المسلمين جانباً شمل كل الميادين التي كانت معروفة، شذبتها ووجهتها وتقدمت بها في منهجها الخيّر وطريقها الفاضل، ثم أوجدت ميادين جديدة قدّمت فيها ثمرة كبيرة.

وطالما أنه ما من حضارة إزدهرت في أمة من الأمم خلال حقبة من الحقب إلا وكان ازدهارها نتيجة لتزاوجها بثقافة حضارة خارجية وفدت عليها، فالجدير بالذكر أن تفاعل العرب مع حضارات أسلافهم من فرس وهنود وإغريق بشكل خاص، بالإضافة إلى ازدهار حركة الترجمة، أدّى إلى حصد حضارة عربية زاهرة، وأبرز مثال كذلك على تفاعل الحضارات هو تفاعل الحضارة الغربية مع الحضارة العربية التي كانت أساساً للأولى ومنبعاً لها.

فلقد ذكر بعض المؤرخين الأوروبيين الدور الخطير الذي لعبه العرب في

إقامة الصرح الحضاري، ولم يكتفوا بذلك فقط، ولكنهم قطعوا بأن هذا الصرح لم يكن ليقام لولا مساهمة العرب في تشييده.

فالحضارة ذات الطابع العربي الإسلامي هي التي أثرت في أوروبا الغربية، وهدتها إلى السبيل الذي انتهى بها إلى ما انتهى إليه اليوم، فلقد تميّز العرب المسلمون بصفات صبغت مؤلفاتهم العلمية والأدبية بصبغتها، وسمت بها إلى مستوى أسمى من مستوى سابقاتها، بل نقلتها إلى عتاب مرحلة جديدة مهدّت لبزوغ الحضارة الأوروبية. وقد شقّت هذه المؤلفات طريق البحث العلمي الذي كان له الفضل الكبير في قيادة أوروبا إلى آفاق حضارتها الحديثة.

وإن الدور الذي لعبه العرب في تاريخ الحضارة هو أنهم وضعوا أوروبا، التي كانت تعيش على فتات علوم الإغريق، في أول طريق التقدم الحضاري الحديث، وزودها بأدوات النجاح في الوصول إلى الغايات الحضارية. ولا مراء في أهمية دورهم هذا وأثره، فقد كانت لهم عقيدة وفلسفة للحياة الإنسانية مكّنتهم من القيام بهذا الدور.

ورغم أنّ مؤرخي الغرب يرون أنّ الحضارة الأوروبية الحديثة هي وليدة الحضارة الإغريقية، ونحن لا ننكر أنّ الفكر الغربي عاون على إنبثاق العصر الحديث والحضارة الأوروبية، إلا أننا نقرر مع المنصفين من المؤرخين الغربيين، وهم قلّة، أنّ تيار اليقظة الأوروبية ابتعد فجأة عن الموارد الإغريقية، أو ابتعد جانبه الرئيسي عنها، وعرّج ابتداءً من القرن الثاني عشر ميلادي على الموارد العربية. ومن ثم ظهرت في أوروبا بوادر نهضة علمية أدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص العرب. وهكذا، فإن كل ذلك يدل على أن تأثير الحضارة الإسلامية في العلم الغربي المسيحي كبير، إذ انتقلت كثير من المؤلفات العلمية في مختلف العلوم والفنون إلى أوروبا، وترجمت إلى اللغات اللاتينية مرات عديدة، فكانت تُدرسّ في المؤسسات والمعاهد والجامعات، ويعتمد عليها كمراجع أساسية، لذلك يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذي قامت به الثقافة الإسلامية في إثراء الفكر الأوروبي، لفترة طويلة من الزمن، إستمرت لقرون عديدة، وفي ذلك يقول الأديب والمؤرخ الفرنسي روبير بريغو. «كانت أوروبا في

القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر، تتجه ألى العرب باحثةً عما استجد عندهم من صناعات وعلوم... ومن فنون خاصة بالملاحة. كانت السبب في تطوّرها وتبدل حالها... كانت أوروبا تتجه إليهم منقبةً عن كشوفهم في علوم الرياضيات والفلك والطب والكيمياء، بل كات تبحث عندهم عن آثار ابنْ سينا وابن رشد. كان علماؤها من أمثال «دانيال دي موربي» و«ميشيل سكوتوس» و«دي جريمون» و «دوريلاك» و«ريمون لوك» يلتمسون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم. ووجد «ريجيو مونتانوس» عندهم المعارف التي مكنّت «هنري الملاح» و«فاسكو دي جاما» وكريستوف كولومبس» من ارتياد المحيطات والوصول إلى أطراف العالم: وعثر «أديلهارد دي بات» في قرطبة على النسخة الوحيدة في العالم من مخطوط «أوسليد» الذي ظلّ يلقن الطلبة في مدارس أوروبا حتى عام ١٩٣٣ وطاف كل من أفلاطون لويزون وفيرونانتشي في أرجاء إسبانيا، ليتزودوا من علوم الرياضيات لا سيما الجبر والتقويم واللوغارتم. بل إن الكنيسة نفسها التجأت إلى العرب لتجد عندهم ما يعنيها على إقامة صرح الفكر المدرسي... ويحث كل من ألبير الأكبر وتوماس أليني عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية، وعند الفارابي... وفي الوقت الذي أنشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة إسبانيا العربية صرح روجر بيكون في أوكسفورد بأن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي، كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية. ولقد دعيت أوروبا فجأةً إلى الحياة، بعد أن ظلّت غارقةً في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون، وهي مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامي...»

وعلى أثر ذلك يقول الكاتب نفسه «ألا يجدر بنا أن نكون أكثر وعياً واستنارة فنتخذ موقفاً جديداً من العرب غير موقفنا الذي دفعتنا إليه الأفكار التي ظلّ الأكاديميون يرددونها وقتاً طويلاً، وهي ليست في الواقع إلا وليدة التباسات قديمة وأوهام تاريخية أغمض أصحابها أعينهم عن الإسلام، رافضين أن يقفوا على حقيقة علومه ومعارفه، مستنكفين أن يعترفوا بفضله على المسيحية التي اتّخذت الصبغة البربرية في أوروبا[1].

(١) الحضارة الاسلامية وعوامل تفوقها: بحث مقدم لسمر كرامي باشراف دكتور أنيس الأبيض جامعة الجنان ـ طرابلس ١٩٩٠-١٩٩١

إزدهار الفكر في عصر الإسلام الذهبي:

شغلت الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثامن للميلاد ـ مطلع العصر العباسي ـ حتى القرن الخامس عشر م حركة فكرية كان محورها ترجمة واسعة النطاق انتقل منها إلى لغة العرب تراث الأقدمين من أهل الحضارات ـ من الفرس والهنود واليونان بوجهٍ خاص ـ وقد رعى هذه الحركة العلمية الخلفاء وأهل اليسار، وقد استمرت قرناً ونصف قرن من الزمان، بدأ بعدها ـ منذ مطلع القرن العاشر وما بعده ـ يتفاعل التراث الأجنبي الدخيل مع التراث الإسلامي الأصيل فكانت الأصالة والجدة والإبتكار في تراث المسلمين. كان هذا في الشرق العربي الإسلامي.

أما في المغرب العربي الإسلامي. نقصد بلاد الأندلس (أي إسبانيا(*)) تحت حكم العرب المسلمين فقد تأخر إزدهار الحياة العقلية نحو قرن من الزمان، بسبب اضطرابات محلية. ثم نشر العرب المسلمون بعد ذلك الفكر والحضارة والعدل والتسامح الديني في ربوع البلاد.

شيوع التخلف والجهالة في أوروبا:

شاع التخلف وانتشر الجهل في أوروبا في تلك العصور، فمنذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس للميلاد غطت أوروبا في نوم عميق دام بضعة قرون من الزمان، قيل أنها ألف عام، تعرضت أثناء ذلك لظلام الجهل والتخلف، حاولت فيه أوروبا أن تبدد الظلام وتنفض عن نفسها آثار النعاس الذي استولى عليها طيلة ذلك الزمان. وجاهر مؤرخو الفكر بأن أوروبا ولا سيما بين عامي ١٠٠٠ و ١٣٠٠ م كانت بيئة غير صالحة لنشأة العلم، فإن العلوم لا تنبت في أرض تنتشر فيها الأمية ويشيع فيها السحر وتفشو الخرافة. وقد صاحب هذه الظواهر قلة الكتب وفقر المكتبات وندرة المدارس وفوضى

(*) أخذ العرب يستولون على بلاد الأندلس منذ مطلع القرن الثاني (٧١١ م) حتى سقطت غرناطة آخر مملكة عربية في يد ملوك الإسبان عام ١٤٩٢ أي أن حكم العرب دام نحو ثمانمائة قرون في الزمان. أما حكم العرب لجزيرة صقلية فكان نحو قرنين من الزمان من القرن التاسع حتى الحادي عشر

الجامعات وفساد الأخلاق.

ويروي مؤرخو العلم أن محبي العلم من رواد حركة إحياء الآداب القديمة في القرن الثاني عشر كان «برنار من أهل تشارتر» Bernard of CHarters وقد ترك وراءه فيما يقال مكتبة تضم أربعة وعشرين مجلداً وكانت إيطاليا أغنى من فرنسا. ولهذا اقتنى أكبر رجال القانون أوكيرسيوس «Occursins» ثلاثة وستين كتاباً. وكانت أغنى مكتبة في أوروبا هي مكتبة كنيسة «كنتر بري»، وكانت تضم في عام ١٣٠٠ م خمسة آلاف كتاب وأما غيرها من المكتبات الكبيرة فكانت في العادة لا تحوي أكثر من مائة مجلد مع استثناء مكتبة «كلوني» التي ضمت في القرن الثاني عشر خمسمائة وسبعين كتاباً. هذا ما يقوله مؤرخو العلم عن المكتبات في أوروبا إبان العصر الذي نؤرخ له[٢]. والمقارنة بين هذا وبين المكتبات في حواضر الإسلام في العالم العربي الإسلامي يلقي ضوءاً على الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين العالمين في مجال العلم. وحسبنا أن نشير إلى أن العصر العباسي كان غنياً بمكتبات ضخمة منها مكتبة بيت الحكمة في بغداد، وهي التي يقال أن الرشيد أنشأها، وأن المأمون قد تعهدها ونماها، وكانت تضم مترجمين من اليونانية ـ منهم يوحنا بن ماسويه ـ ومن الفارسية ـ منهم ابن نوبخت وللمترجمين رئيس ومساعدون، ومعهم نساخ وعمال ومجلدون. وللمكتبة مدير يشرف مع معاونيه على شؤنها. وقامت معها دار الحكمة ـ أو دار المعرفة فيما يسميه ابن خلدون ـ وقد أنشأها الحاكم بأمر الله في القاهرة عام ٣٩٥/ ١٠٠٥ م وضمت مائة ألف مجلد في العلوم الدخيلة ـ غير الدينية ـ منها ستة آلاف مخطوط في الرياضيات والفلك مع كرتين سماويتين. أولاً هما من صنع بطليموس، والثانية من عمل عبد الرحمن الصوفي. ويسرت أسباب الراحة لرواد المكتبة، فأحسن تأثيثها وزودت بالأقلام والمداد والقراطيس والخدم. وحفلت برفوف تفصلها حواجز، وقد علقت على كل منها لافتة بنوع الكتب التي تضمها. وكانت بها قاعات للنسخ والترجمة والتأليف والمناظرة، وقد حبس عليها الحاكم بأمر الله

---

(٢) توفيق الطويل: في تراثنا العربي الاسلامي. سلسلة عالم المعرفة. الكويت أذار ١٩٨٥ ص ٢٠٦-٢٠٧

أوقافاً ضخماً[٣].

أما الأندلس فلقد كانت تزخر بجامعاتها في قرطبة واشبيلية ومَالقة وغرناطة وكان الأساتذة. يُختارون على أساس معين ولمؤهلات خاصة[٤].

وكانت هذه الجامعات تقوم بمناشط متنوعة أحدها يشبه ما يقام من نشاط ثقافي أو مواسم ثقافية في بعض الجامعات المصرية، وغيرها من الوسائل[٥]. وإلى هذه الجامعات الأندلسية كان يفد ألوف الطلبة من الخارج (من أوروبا وغيرها[٦]، الذين حملوا علومها إلى بلدانهم، وبالتدرج ظهرت آثارها في مختلف جوانب الحياة حتى كللت الترجمة هذا النشاط.

كما أن عدداً من الأساتذة المسلمين في فروع العلوم المختلفة دَرّسوا في بعض الجامعات الأوروبية كجامعة مونبيلية في جنوب فرنسا. وكان التعليم في الأندلس شاملاً لكل ألوان المعرفة ولكل المستويات ذكوراً وإناثاً. ولم تُحرم حتى القرى نصيبها من التعليم. وكان للعلم وللعلماء المكانة العالية، وإليهم كان يسعى الحكام والمسؤولون لا العكس[٧].

وضمت سائر حواضر الإسلام في العالم العربي العديد من المكتبات الغنية الخصبة، يلي قامت إلى جانبها مكتبات خاصة زخرت بآلاف المجلدات. فكانت مكتبة البلدية في مدينة صغيرة كالنجف بالعراق تضم أربعين ألف مجلد، ومكتبة أبي الفداء نحو سبعين ألف، ومكتبة السلطان المُؤيد الرسولي في جنوبي الجزيرة العربية (وهو عماد الدين إسماعيل ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢ م... تضم مائة ألف مجلد. ومكتبة المراغة أربعمائة ألف مخطوط، وكانت أغنى هذه المكتبات جميعاً مكتبة العزيز بالله الفاطمي بالقاهرة، إذ ضمت مليوناً وستمائة ألف مجلد مفهرسة ومنظمة. منها ستة آلاف وخمسمائة في فروع الرياضيات، وعشرة آلاف في العلوم الفلسفية. وكان الحكم في قرطبة يقتني مكتبة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد

---

(٣) توفيق الطويل: المرجع نفسه ٢٠٧.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المدنية الاسلامية وأثرها على أوروبا القاهرة ١٩٦٣ ص ١٧٢

(٥) شريف: (M.M.SHARIF) دراسات في الحضارة الاسلامية ترجمة أحمد شلبي القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٨

(٦) شريف: المصدر نفسه ص ٥٠

(٧) عبد الرحمن علي الحجي: الحضارة الاسلامية في الأندلس ص ٥٠ سنة ١٩٦٩

مع أن ملك فرنسا العالم «شارل الخامس» لم يستطع بعدهُ بأربعة قرون من الزمن أن يجمع في مكتبته أكثر من ألف مجلد إلى آخر ما يرويه المستشرق جاك بسلر[٨].

وخلف الواقدي مكتبة تضم ستمائة صندوق لا يقوى على نقل كل منها أقل من رجلين. بل كان عند الأمراء من أمثال الصاحب بن عباد كتب يقال إنها تعادل ما ضمت دور تحوي عديداً من مجلدات الكتب الأوروبية. وكانت مكتبة ابن المطران طبيب صلاح الدين الأيوبي تضم عشرة آلاف مجلد.

وكانت المستشفيات. إلى جانب المساجد والمدارس. تغص بالكتب العلمية عامةً والطبية منها بوجهٍ خاص، لأنها كانت دوراً للعلاج، ومعاهد لتعليم الطب. وقد بلغ الشغف باقتناء الكتب في العالم العربي الإسلامي ذروته في الفترة التي امتدت من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر لميلاد المسيح بل إلى ما بعد ذلك[٩].

أوروبا تنقل التراث الإسلامي العربي في صقليه.

وقد بدأت حركة النقل هذه من صقليه في النصف الأخير من القرن الحادي عشر. وكانت الجزيرة تحت حكم العرب المسلمون منذ عام ١٢٠هـ واستمر حكمهم لها ٢٧٢عاماًذلك أن مغربي أفريقيا قد أبحروا الى صقلية عام ٨٢٧م واستولوا على الجزيرة كلها، وظلوا بها حتى أواخر القرن الحادي عشر. وكان ملوك النورمانديين حُماة للعلوم ولا سيما «روجار الثاني» الذي حكم بين سنتي (١١٣٠ و ١١٥٤ م) وقد تسامع بأعظم الجغرافيين الشريف الأدريسي، فاستدعاه إلى بلاطه وأغدق عليه النعم...

وقد استخرج المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥١ خريطة للأدريسي طولها متران وعرضها متر واستخرج «كونار ميلر» خريطة للأدريسي ونشرها باللاتينية في طبعة ملونة عام ١٩٣١ وظلّ التأثير العربي الإسلامي واضحاً طوال حكم النورمانديين، إلى حد أن بلاط روجار الثاني كان متأثراً في كل مظاهره بالخلافة

(٨) توفيق الطويل: المرجع السابق ص ٢٠٧-٢٠٨

(٩) توفيق الطويل: المرجع نفسه ص ٢٠٨

الفاطمية في مصر. فكان يلبس عباءة فاخرة مكتوباً عليها بالحروف العربية الكوفية، بل أنشأ، روجار، ديواناً للترجمة يعمل به علماء من المسلمين والنصارى واليهود معاً. وفيه نقلوا العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية[١٠].

وفي عهد جيوم الأول بن روجار الثاني إزدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وكان مما ترجم كتاب المجسطي لبطليموس حوالي عام ١١٦٠ م. وشارك في الترجمة من العربية جيرار الكريموني ١١٨٧، فترجم أكثر من سبعين كتاباً عربياً في الفلك والجبر والحساب والطب. واهتم فردريك الثاني بالحضارة العربية الإسلامية، وكان على دراية عميقة بالعالم الإسلامي ومدارسه. وقد أسس في نابلي أول جامعة للدولة، هي جامعة بلنسية (١٢١٢- -١٢١م) عنيت بالدراسات الطبية وسنَّ لها فردريك لائحة خاصة بها، تمنح كل دارس بها إجازة هي الأولى تاريخياً في أوروبا، وذلك إلى جانب أن فردريك الثاني لشدة ولعه بالحضارة الإسلامية صبغ بلاطه بصبغة إسلامية وكان نفسه يحرِصُ على الظهور بملابس إسلامية[١١]. وهكذا كانت صقلية التي ازدهرت فيها حضارة العرب وعلومهم مركز إخصاب لقح فيه الفكر العربي الإسلامي الفكر الأوروبي.

وقد أبان «سودهوف» في كلمته التي افتتح الإجتماع السنوي الرابع للمجمع العلمي لتاريخ العلوم فضل «قسطنطين» أول وسيط للعلم الإسلامي إلى أوروبا المسيحية وكشف عن أهمية الدور الذي نهض به في نقل التراث الإسلامي إلى أوروبا[١٢].

أوروبا تنقل التراث العربي الإسلامي في بلاد الأندلس:

وتطلق بلاد الأندلس على ما دان لحكم العرب من شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا) وكانت حركة نقل العلم العربي منها إلى أوروبا أعمق تغلغلاً وأشد قوة وأعظم اتساعاً وأطول عهداً وكانت مصدر تجديد للعلم الأوروبي في ظل تسامح ديني عرف به خلفاء المسلمين، وامتد أثره إلى العلماء المسيحيين الذين أقبلوا من

(١٠) توفيق الطويل: المرجع نفسه ص ٢٠٩-٢١٠
(١١) توفيق الطويل: المرجع نفسه ص ٢١١
(١٢) توفيق الطويل: المرجع نفسه ص ٢١١

أنحاء أوروبا لتلقي العلم في حواضر الإسلام الأندلسية. وربما كان أول باحث أشاد بفضل العرب المسلمين على الحضارة الأوروبية وثقافة عصر النهضة، هو الأب اليسوعي الإسباني «جوان أندريس» Juan Andres إذ أنه نشر بالإيطالية (في بارما (١٧٨٢ـ ١٧٩٩م) كتاباً جليلاً في سبعة مجلدات تحت عنوان «أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة». ثم أعاد نشره في روما مُنَقحاً موسعاً بين سنين ١٨٠٨ و ١٨١٧ في ثمانية مجلدات. وفيه أكد أن النهضة التي قامت في أوروبا في كل ميادين العلوم والفنون والآداب والصناعات مردها إلى ما ورثته عن حضارة العرب المسلمين. كان البابا «سلفستر الثاني» ١٠٠٣م قد قام برحلة إلى الأندلس، فتأثر بالعلم العربي تأثراً بالغ العمق، ولا سيما في الرياضيات. ولعله أول مسيحي قام بتعريف أوروبا بالأرقام العربية الإسبانية التي كان ينقصها الصفر وقتذاك.

ولكي نكون على بينة من العلم العربي الإسلامي الذي انتقل إلى أوروبا المسيحية، نُشير بإيجاز. إلى أشهر العلماء واللامعين في الأندلس في نهضتها العلمية منذ القرن العاشر وما بعده: كان من هؤلاء إبن مسرة القطربي ٩٣١م. وأبو القاسم المجريطي المتوفي في قرطبة عام ١٠٠٧م وقد كتب في الإسطرلاب، ثم أبو القاسم الزهراوي ١٠١٣م وكان أشهر جراحي العرب في العصور الوسطى كلها، وقد ألف دائرة معارف طبية تحت عنوان «التصريف لمن عجز عن التأليف» تناول فيها الطب والصيدلية والجراحة وضمت الجراحة ثلاثة أجزاء نالت أسمى درجات التقدير عند شعوب أوروبا المسيحية، وبه صور قيمة لكثير من أدوات الجراحة، لعلاج الكي وعمليات الشق وأمراض العيون والأسنان والحصاة والفتق والنساء والتوليد والرضوض وتجبير ضروب الخلع والكسر وغير ذلك).

ومن الرياضيين والفلكيين أبو إسحاق إبراهيم النقاش المشهور بالزرقالي ١٠١٧م وقد اخترع الأسطرلاب المعروف باسم الصفيحة. ومن أشهر المؤرخين صاعد الأندلسي ١٠٧٠م صاحب طبقات الأمم. ثم إبن طفيل الفيلسوف ١٠٨٥م وغيرهم.

وقد ازدهرت الحياة العقلية في الأندلس في القرن الثاني عشر حتى كانت في عصرها الذهبي. فكانت قبلة علماء أوروبا يحجون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها، وينقلوا تراثها من العربية إلى اللاتينية. وقد كان في مقدمة مفكري الأندلس اللامعين في ذلك القرن ابن باجة المتوفى مسموماً عام ١١٣٩ وابن رُشد الشارح الأعظم لكتب أرسطو وقد ترجمت كل كتبه تقريباً إلى العبرية واللاتينية. وكان لها بالغ التأثير في أوروبا المسيحية.

وفي فن العلاج الطبي تُذكر أسرة ابن زهر التي أنجبت سلسلة كاملة من مشاهير الأطباء أشهرهم أبو مروان بن أبي العلاء ١١٦٢م وكان أعظم طبيب بعد الرازي يمارس العلاج في المستشفيات. وينسب إليه وصف لعلاج قمل الجرب الذي لم يعرف في أوروبا إلا عام ١٦٨٧م ثم أعظم الصيادلة العرب ـ فيما يقول «ماكس مايرهوف» ـ وهو أبو جعفر الغافقي ١١٦٥م. وفي كتابه عن الأودية المفردة وصف نباتات وصفاً بالغ الدقة مع ذكر أسمائها بالعربية واللاتينية والبربرية، ثم «ابن العوام الأشبيلي» وله أهم كتاب عربي في الفلاحة يجمع بين التبحر في العلم اليوناني والعلم العربي، وبين المعارف العملية العميقة التي أفادها من تجاربه المباشرة. ومن هذا وصف دقيق لعدد يبلغ ٥٨٥ نوعاً من النبات منها ٥٥ من الأشجار المثمرة مع ٣٦٧ صورة ملونة لنباتات وحيوانات. ويرى «ماكس ما يرهوف» أن هذا هو أحسن كتاب عربي في العلوم الطبيعية وخاصةً في علم النبات. وقد عرفت أوروبا المسيحية كل هذا التراث العربي الإسلامي وأفادت منه في وقت كانت تهتم فيه باليقظة وتلتمس أسباب النهوض بعد سباتٍ طويل.

ويُعَدُّ القزويني المتوفى سنة ١٢٨٣م والمُلَقَّب بـ (بليني المشارقة) من أشهر علماء التاريخ الطبيعي بين العرب المسلمين، وتقوم طريقة القزويني على الوصف، كما صنع بوتون بعده. وبحث علماء الطبيعة من العرب أيضاً، في النباتات وفي تطبيقها على الطب على الخصوص وأنشأوا حدائق زرعوا فيها أندر النباتات وأكثرها طرافة، ومن ذلك أن اشتملت غرناطة على حديقة رائعة في القرن العاشر من الميلاد، ومن ذلك أن كان لعبد الرحمن الأول حديقة مثلها بالقرب من قرطبة، وأن أوفد جماعة من علماء الطبيعة إلى سورية وغيرها من

أقطار آسية ليأتوا إليها بأعزّ النباتات(١٣).

والرازي الذي هو من أعظم أطباء المسلمين، كان من علماء الكيمياء، وألفّ في شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء والطب. ووضع الرازي آثار من ظهر قبلهُ من الأطباء على محك النقد الشديد، وكان ما كتبه في بعض الحميّات ذات البُثور كالحصبة والجُذري موّلَ الأطباء زمناً طويلاً، وكان واسع الإطلاع على علم التشريح، وكان كتابه في أمراض الأطفال أول كتاب بحث في هذا الموضوع، ويُرى في كتبه وسائل جديدة للمداواة، كإستخدام الماء البارد في الحميّات المستمرة الذي أخذ به علم الطبّ الحديث، وكاستخدام الكحول والفتائل وكإستخدام المحاجم لمعالجة داء السكتة.

وترجمت أكثر كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية وطبعت عِدّةُ مرات، ولا سيما في البندقية سنة ١٥٠٩م، وفي باريس سنة ١٥٢٨م وسنة ١٧٤٨م، وأعيد طبع ترجمة كتابه في الجُدري والحصبة سنة ١٧٤٥م، وظلت جامعات الطب في أوروبة تعتمد على كتبه زمناً طويلاً، وكانت كتبه، مع كتب ابن سيناء أساساً للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر من الميلاد.

ونذكر من أطباء العرب علي بن العباس المعاصر للرازي تقريباً، والذي عاش في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ونذكر من كتبه كتاب «الملكي» المشتمل على الطب النظري والطب العملي والذي استند فيه إلى مشاهداته في المشافي، لا إلى الكتب، وأظهر فيه عدة أغاليط لأبقراط وجالينوس وأرِيباسيوس وبولس الإجيني.

وابتعد فيه عن مبادىء الطب اليوناني كثيراً في معالجة الأمراض على الخصوص مع اعتماده عليها وترجم إتيان الإنطاكي هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٢٧م، وطبع هذا الكتاب في مدينة ليون سنة ١٥٢٣م(١٤).

ويُعتبر أبو القاسم القُرطبي المتوفى سنة ١١٠٧م أشهر جرّاحي العرب، وتخيل أبو القاسم كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه، ووصف أبو القاسم عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص فعُدّت من اختراعات العصر الحاضر

---

(١٣) غوستاف لوبون: المصدر السابق ٤٨٥-٤٨٧

(١٤) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٤٨٨-٤٨٩

على غير حق. ولم يُعرف أبو القاسم في أوروبة إلا في القرن الخامس عشر، وذاع صيته فيه، وينقل «لوبون» نقلاً عن العالم الفزيولوجي هالّر قوله: «كان كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر وطُبعت الترجمة اللاتينية الأولى ككتاب أبي القاسم في الجراحة سنة ١٤٩٧م والطبعة الأخيرة لهذا الكتاب سنة ١٨٦١م.

وكان لابن زُهر الأشبيلي، الذي عاش في القرن الثاني عشر من الميلاد. شهرة عظيمة وإن كانت دون شهرة أولئك، فقد كان مُجرباً مصلحاً مُوطئاً لعلم المداواة قائلاً: «إن في البدن قوةً كامنة ناظمة للأعضاء كافية وحدها لشفاء الأمراض على العموم».

وكانت مشافي العرب المسلمين، كمشافي أوروبة في الوقت الحاضر، كما يذكر لوبون، ملاجىء للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب، وكان الطلاب يتلقّون دروسهم في فرش المرضى أكثر مما يتلقونها في الكتب، ولم تقلّدهم جامعات أوروبا في القرون الوسطى إلا قليلاً. كما أنشىء العرب مشافي للمصابين ببعض الأمراض كالمجانين وتنطوي وصايا مدرسة «ساليرم» على نصائح غالية في علم الصحة، ويشير لوبون أنّ هذه المدرسة التي عُدّت أول مدرسة في أوروبة زمناً طويلاً، مدينةٌ للعرب بشهرتها، وذلك أن النورمان، لمّا إستولوا على صقلية وعلى جزء من إيطاليا في أواسط القرن الحادي عشر من الميلاد، أحاطوا مدرسة الطب التي أنشأها العرب. بما أحاطوا به المعاهد الإسلامية من الإعتناء الكبير، وأن قسطنطين الإفريقي، الذي كان من عرب قرطاجة، عُين رئيساً لها، وأنه ترجم أهم كتب العرب الطبية إلى اللغة اللاتينية، فاقتطفت من هذه الكتب وصايا مدرسة ساليرم التي ظلت سبب شهرتها القائمة زمناً غير قصير.

والطب مَدين للعرب بعقاقير كثيرة كالسّليخة والسنا المكّيّ والرّاوَنْد والتمر الهندي وجوز القيء والقِرمِز والكحول وما إلى ذلك، وهو مَدينٌ لهم بفن الصيدلة وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تُستعمل كالأشربة واللّعوق واللّزقات والمراهم والدّهان والمياه المقطرة، والطب مَدين لهم، بطرق طريفة في المداواة ومنها طريقة إمصاص النبات بعض الأدوية كما صنع ابن زهر الذي كان يعالج المَرضى المصابين بالقبض بإطعامهم عنباً أُشرب من بعض المُسهلات.

وعلم الجراحة مدين للعرب، أيضاً، بكثير من مبتكراته الأساسية، وظَلّت كتبهم فيه مرجعاً للدراسة في كليات الطبّ إلى وقتٍ قريب جداً، ومن ذلك أن العرب كانوا يعرفون في القرن الحادي عشر من الميلاد معالجة غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحصاة التي وضعها أبو القاسم بوضوح، وكانوا يعرفون صبّ الماء البارد لقطع النزف وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل وكانوا يعرفون صبّ المُرْقِد الذين ظُنّ أنه من مبتكرات العصر الحاضر، وذلك باستعمال الزُّوان لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة حتى يفقد وعيه وحواسه(١٥).

وقد اتسعت أبحاث العرب المسلمين في علم الرياضيات، ولا سيما علم الجبر، وعُزي إليهم اكتشاف هذا العلم، وإن كانت أصوله معروفة منذ زمنٍ طويل، ومع ذلك فقد حوّل العرب علم الجبر تحويلاً تاماً، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة.

ويبلغ علم الجبر من الإنتشار بين العرب ما ألّف نه محمد بن موسى كتاباً مُوطئاً له بأمر المأمون في أوائل القرن التاسع من الميلاد، ومن ترجمة هذا الكتاب اقتبس الأوروبيون معارفهم الأولى لعام الجبر، بعد زمنٍ طويل(١٦) وأدخلت دراسة الترجمات في مناهج المدارس المسيحية. وبلغت طليطلة الذروة كمدينة للنور والعلم في عهد الفونس الحكيم (الذي حكم بين سنتي ١٢٥٢ و ١٢٨٤م) وكان مخلصاً في تشجيعه للحركة الثقافية، بل كان هو نفسه من العلماء المرموقين. واستمرت حركة الترجمة بها أكثر من قرن، ونقل المترجمون العلوم العربية التي كانت منقولة عن العلوم ا ليونانية في وقتٍ كادت أوروبا تجهل التراث اليوناني تماماً. وكان في مقدمة المترجين «دو منجو جونصالية» الذي نشط بين عامي ١١٣٠ و ١١٧٠م وكان من بين مترجماته بعض مؤلفات الفارابي وابن سينا والغزالي ومن هذا ترى أن الكنيسة التي كانت تشعل الحروب الصليبية وتدفع أوروبا المسيحية إلى نارها لتقضي على الإسلام والمسلمين باسم المسيحية دين

(١٥) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٤٩٤
(١٦) غوستاف لوبون: المصدر نفسه ص ٤٥٥

المحبة والتسامح هي نفسها التي كانت في ذلك الوقت نفسه ترنو إلى العلم الإسلامي بإعجاب شديد. وتتكفل في الوقت نفسه بنقله إلى أوروبا ليكون الدم الجديد الذي تحيي به مواتها.

هكذا كان اللقاح العربي الإسلامي الذي قدمه المترجمون بدءاً من القرن الثامن حتى نهاية القرن الثالث عشر م قدموا إخصاباً لثقافة أوروبا الضحلة المتخلفة في ذلك الوقت وهكذا تسلل العلم العربي الإسلامي إلى أوساط العالم الغربي المسيحي في الغرب. كما أنه لقح العلم الحديث الأوروبي الذي أخذ في التولد والنشوء.

الفصل الثالث

النهج الحضاري في نشأة المدينة الإسلامية

١ ـ تعدد النظريات حول كيفية نشأة المدن:

تعددت النظريات الحديثة التي حاولت تفسير كيفية نشأة المدن، ومن ثم المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الإستيطان الأخرى، ومن هذه النظريات نظرية «كارل وايت فوجل» Karel wittfogel وفحوى هذه النظرية أنّ نشأة المدينة ارتبطت بالحاجة إلى تنظيم استغلال الماء، وتنظيم أعمال الري، وقيام مشروعاته التي تحتاج بدورها إلى إدارة تنظم هذه الأعمال، وإلى قيام إنشاءات لاستغلال الماء في الزراعة وتطلب هذا الأمر من جهة أخرى إهتماماً بالتقويم، وكان هذا التقويم مرتبطاً بتوقيت صدور الماء. أما نشأة المدينة الإسلامية، فيكشف البحث أنّ نشأتها وتطورها قد ارتبطا بمعايير حضارية إسلامية تأثرت إلى حدٍ كبير بتاريخ الإسلام وتطور حضارته[١].

وتبدأ نشأة المدينة الإسلامية من «يثرب» بعد هجرة الرسول ﷺ إليها والتي حولتها إلى «مدينة» بمفهوم حضاري واضح، إنسحب على تسميتها، فأصبحت تسمى «المدينة» فبعد الهجرة حدث تغيير واضح، سعى إلى تحقيقه الرسول، أساسه الدعوة إلى الإسلام، ذلك الدين الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية

(١) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية. سلسلة كتب ثقافية شهرية المجلس الوطني للثقافة والآداب. الكويت: آب ١٩٨٨ ص ٤٩-٥٠-٥١

To: www.al-mostafa.com

تهيئة المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تماماً مع إهتمامه بالكيان المادي للمدينة، فأدى ذلك تدريجياً إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية[٢].

وقد أثمرت السياسة التي اتبعها الرسول محمد عليه السلام القائمة على تذويب العصبيات القبلية ودعوته إلى نشر روح التآخي في تحقيق أهدافها نحو إيجاد مجتمع إسلامي مترابط بعيد عن النزعة القبلية المتعصبة، متجهة نحو تطبيق تعاليم الدين الإسلامي، مرتبط بالأراض، ولا أدل على ذلك مما نراه في مدن الأمصار التي انصهرت فيها القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية، فافتخرت بأبناء مدنها بعلمهم وعلمائهم وفقهائهم وأدبائهم بعد ذلك[٣].

٢ـ مقومات المدينة الإسلامية أو التكوينات المعمارية الجديدة:

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى «يثرب» بدأت تتغير معالمها العمرانية تغيراً جمع شتاتها، ووحد كيانها، وجعلها مركزاً حضارياً متكاملاً يتناسب وذلك التغيير الذي طرأ على مجتمعها الإسلامي الجديد الذي بدأ يستجيب للتشكيل الحضاري الجديد الذي يدعو إليه الإسلام وبهذه الهجرة صارت للنبي ﷺ .

صفة جديدة هي صفة رئيس الدولة الإسلامية بجانب الصفة الأساسية الأولى وهي صفة النبوه ومن ثم أصبحت مركزاً سياسياً وإدارياً فاكتسبت بذلك الصفة المدنية. وكان لذلك أثره المباشر في تكوينها المادي الذي بدأ يتغير تلبية لتلك المتغيرات المدنية[٤].

وتوفرت للمنطقة التي نزل بها رسول الله ﷺ، وهي منازل أخواله من بني النجار، ميزات أمنية هامة لتقارب منازلها، وهي ميزات لم تكن تتوفر في منازل الأنصار الأخرى، وفي هذه المنطقة كانت بداية العمل الإنشائي للتكوينات

---

(٢) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٥١

(٣) عبدالله بن ادريس: مجتمع المدينة في عصر الرسول ﷺ نشر جامعة الملك سعود عمادة شؤون المكتبات: ١٩٨٢ ص ١٣٣-١٤٧

(٤) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٥٣

المعمارية الجديدة، وكان نواتها «المسجد الجامع» ومن حوله أنشئت منازل للمهاجرين الموزعين في أحياء الأنصار، وفي هذا تجميع للمسلمين ليكونوا كتلة واحدة في مجابهة الأخطار المحدقة بهم. وهكذا جمع الرسول بين قوة ومنعة بني النجار المهاجرين وبقية الأنصار[٥] من حوله في هذا المركز العمراني الناشيء، وبدأت أعمال الإنشاء بالمسجد الجامع، وبجواره من جهة الشرق بُني منزل الرسول شارعة أبوابه على المسجد، وبنيت قبلته أولاً في اتجاه الشمال نحو بيت المقدس، وفي سنة ٢ هجرة عدلت القبلة نحو مكة تلبيةً للأمر السماوي، ومع تزايد أعداد المسلمين باتت الحاجة ملحة لتوسعة المسجد من فترة الى أخرى وكانت أول توسعة بعد غزوة «خيبر» سنة ٧ هجرية، ومن حول المسجد الجامع اختطت منازل للمهاجرين في الأرض التي وهبها الأنصار الرسول. وقد جاء أكثر إقطاعات الرسول ﷺ في الأرض الموات، فقد ذكر ابنُ سلام: أن الرسول ﷺ حين هاجر إلى المدينة جعل له أهل المدينة «كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء»[٦]. ومن هنا شغلت الأراضي الفضاء بالتكوينات المعمارية الجديدة من المنازل والمساجد وغيرها، والتي قام على إنشائها المهاجرون بعد أن أقطعهم إياها الرسول ﷺ فتواصل عمران المدينة، واتصلت مبانيها وأصبحت كياناً معمارياً واحداً بعد أن كانت منفصلةً، وخصوصاً بعدما خرج اليهود منها... وقد أقطع الرسول ﷺ الأراضي التي وهبه إياها الأنصار للصحابة فكان لعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف به ولأبي بكر رضى الله عنه موضعُ داره عند المسجد وأقطع كلًا من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وعبيد والطفيل وغيرهم موضع دورهم .. «وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه إياه فكان يقطع من ذلك من يشاء»[٧]. وبذلك تكاملت هيئة التكوينات المعمارية بعمارة المساجد ودور السكن ووضح توزيعها على خطط المدينة، وإن ذلك كان محكوماً بتحديد وظائف كل منها، وهو إتجاه في التخطيط أصبح أساساً مُتبعاً فيما

---

(٥) خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة الموصل: ١٩٨٤ ص ١٦

(٦) ابن سلام: كتاب الأموال: تحقيق محمد خليل الهراس ـ القاهرة: ١٩٧٥ ص ٣٥٧-٣٥٨

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان. ج٥ ص ٨٦ طبعة بيروت دار صادر ودار بيروت للنشر.

أنشىء من المدن الإسلامية الجديدة، وانسحب على المدن القديمة التي فتحها المسلمون كدمشق وقرطبة وغيرها[٨].

٣ـ المرافق العمرانية في المدينة الإسلامية

واستكمالاً لمرافق المدينة العمرانية اهتم الرسول ﷺ بإنشاء السوق، ومقارنة بين أسواق يثرب في الجاهلية التي تعددت أمثلتها، وكانت تقع على أطراف المحلات السكنية، وسوق المدينة. . . في الإسلام، تكشف عن الحكمة من التخطيط الحضاري الإسلامي الجديد، فقد أقرّ الرسول نظام المراقبة في الأسواق، فكان يمر بنفسه في السوق ويوضح الأسس الإسلامية في التعامل[٩]. وتأكيداً لوجوب مراقبة السلطة للأسواق استعمل الرسول ﷺ «عمر» على سوق المدينة، وبعد فتح مكة سنة ٨هـ إستعمل سعد بن العاص على سوقها[١٠]، وربطت الشوارع والطرقات ـ باعتبارها شرايين الإتصال ـ بين هذه التكوينات المعمارية. فقد كشفت الروايات التاريخية عن أن المدينة خط بها شوارع رئيسية تمتد من المسجد ويتجه غرباً حتى يصل إلى جبل «سلع»، وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قبا جنوباً، ومن قبا وجد طريق يتجه شمالاً الى البقيع[١١]. وقامت على جوانب هذه الشوراع الرئيسية التكوينات المعمارية المختلفة، وتفرغت منها شوارع فرعية تتوغل داخل خطط الأنصار والمهاجرين، لتسهيل التوصل إلى مسجد الرسول في المركز وهكذا ربطت هذه الشوارع خطط المدينة ومحلاتها المختلفة ربطاً عضوياً حولها من محلات سكنية متناثرة إلى مدينة تتصل أطرافها بطرقات رئيسية بمركز المدينة وبالذات المسجد الجامع[١٢] وسنّ رسول الله ﷺ إنشاء مقار للعلاج والتطبيب، فقرر بعد رجوعه من غزوة الخندق وضع خيمة في المسجد للتداوي، وتأسى الحكام وأهل البر

(٨) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٥٦
(٩) خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق ص ٦٥
(١٠) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٥٧
(١١) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ج٣ ص ٨١٤ بيروت ١٩٧١
(١٢) خليل السامرائي وثائر حامد محمد: المرجع السابق ص ٨٤

والخير بهذه السُنة، وسعوا إلى إنشاء البيمارستانات، التي توفر العلاج لأهل المدينة والقادمين إليها وأوقفوا الأوقاف الكثيرة عليها فبلغت مستوى مُتقدماً في العلاج والتطبيب. كما خصصت بالمدنية على عهد الرسول دور للضيافة واستقبال الوفود كان من أهمها دار عبد الرحمن بن عوف الكبرى، وكانت تسمى «دار الضِيفان» أو «دار الأضياف»[١٣]. وكان لتوجيهات رسول الله ﷺ الأثر الكبير في نظافة المدينة، فحددت مواضع لقضاء الحاجات تسمى «المناصع» إضافةً إلى بيوت الخلاء الملحقة بالمنازل[١٤].

كما أنه دعا إلى إماطة الأذى عن الطريق باعتبار أن تلك شعبة من شعب أمان، فكان يدعو إلى تنظيف الشوارع وإزالة العوائق منها وتجميلها. وفي هذا الإطار اختار مواضع الذبح بعيدة عن المواضع التي تزدحم بالمارة. من هنا تتّضح أهمية التكوينات المعمارية الجديدة بالمدينة وكيفية تخطيطها وتوزيعها على مخططها بطريقةٍ تجعلها كلاً متماسكاً، وإن هذه التكوينات كانت تفي بحاجات المجتمع الفردية والجماعية، المادية والروحية، كما يتّضح الأساس الذي قام عليه توزيع الإقطاعات لإنشاء المحلات السكنية التي تشتمل عليها المدينة، والتي تركت حرية تقسيمها وتخطيطها مكفولة للأفراد والقبائل واكتفى الرسول بالتوجيه والإرشاد[١٥].

٤ـ أهمية نظام الوقف في حياة المدينة الإسلامية:

مع إستمرار الفتوحات الإسلامية ودعم هذه المدن بالجيوش، حدث النمو الطبيعي في مدن الأمصار الإسلامية، وتمشيا مع توزيع القادمين إلى هذه المدن زادت الحاجة إلى المساحات التي تتسّع إلى هذه الزيادات السكانيّة المتتابعة، فشغلت المساحات الفضاء جميعاً، وتلاصقت الخطط[١٦] ومع إستقرار الحياة

(١٣) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٦١

(١٤) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج٢ ص ٦٩٣ ـ بيروت ١٩٧١

(١٥) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٦١

(١٦) السيوطي. حسن المحاضرة ج١ القاهرة ١٢٩٩ هجرية

المدنية في مدن الأمصار. «مدن الهجرة» ضعفت الروح القبلية، وحدث تحول أدّى إلى إنصهار المجموعات السكنية، كما ظهر تحول إلى النواحي الفكرية والإجتماعية والإقتصادية، فقد أخذت المبادىء والقيم الإسلامية تتغلغل بالتدرج، وظهر ذلك في محاولة المشتغلين بالفقه والحديث في بث المفاهيم الإسلامية. وقد أسفرت هذه المحاولات عن نشأة علم الفقه، وعن ظهور مدارس محلية فقهية تتمثل فيها الجهود الجماعية، وينمو إرثها الفكري بطريق التراكم والتكامل، وكان لسياسة الحكام الرامية إلى العمران أثرها الواضح في تطور المدن وازدياد عمرانها، وتبلور كثير من النظم الإسلامية التي أدت بدورها إلى زيادة عمران المدن. ولا أدل على ذلك من ظهور المدارس كمؤسسات تعليمية، والخانقات والربط والزوايا كمؤسسات دينيّة ووقف الأوقاف عليها أثره البالغ في تطور المدن وازدياد عمرانها حتى نهاية العصر العثماني. وقد لعبت الأوقاف دوراً خطيراً في حياة المدن، وانتشرت انتشاراً ملحوظاً حتى خصص لها ديوان يعرف بديوان الأحباس أو الأوقاف(١٧). وقد عرف الوقف كنظام منذ عهد الرسول ﷺ، ولكن أثره في عمران المدن الإسلامية أصبح واضحاً بصفة خاصة مع بداية القرن السادس للهجرة واستمر بعد ذلك مؤثراً واضحاً من المؤثرات التي دفعت إلى تطور عمران المدينة الإسلامية. وأثرت تأثيراً واضحاً في تشكيل حياتها الإجتماعية والإقتصادية والثقافية(١٨). والوقف صدقة جارية من أموال الواقف في حياته ويستمر بقاؤها بعد مماته، تخصص لوجوه البرّ والخير كإعانة الفقراء، أو بناء مسجد، أو قيام مدرسة وما شابه ذلك شريطة بقائه واستمرار هذه الصدقة، وعلى ذلك يكون تحقيق الخير هو الفرض الأساسي من عمل الوقف، وإن اشتملت الأوقاف في كثير من الأحيان الصرف على أسره الواقف(١٩) وتضمنت أحكام الوقف مشروعية تنميتها وإستثمارها بزيادة المباني والأراضي والمباني الموقوفة عن طريق الشراء أو البناء(٢٠).

---

(١٧) القلقشندي: صبح الأعشى: ج١٠ ص ٤٥٢-٤٥٣

(١٨) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٧٩

(١٩) حياة ناصر الحجي: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده. ص ٤٥ مكتبة الفلاح ١٩٨٣

(٢٠) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٨٠

والأوقاف بهذا المعنى تستلزم حركة عمرانية تشكل جانباً هاماً من حركة العمران في مراكز الإستيطان ومن أهمها المدن. وأقرّ الإسلام مبدأ الوقف، وأوضح فقهاء المسلمين الأصول التي تتّبع عند الوقف، وصّنفوا أنواعه وحددوا شروطه. وظهر أثرهُ في عمران المدينة الإسلامية باعتبارها حيز التطبيق لأوجه نشاطِهِ المعمارية، وتطورت أهمية الأوقاف بتطور حياة المجتمع الإسلامي من عصرٍ إلى آخر، ولعبت الأوقاف دوراً اختلفت أهميتُه من عصرٍ إلى آخر. كما لعبت دوراً خطيراً في تشكيل حياة الكثير من المدن الإسلامية شرقاً وغرباً. وتمثل الأوقاف جانباً تطوعياً في عمران المدن عَضَّدَ بجهودات الدولة في هذه الفترات من تاريخ العمران بالمدن الإسلامية، وشيوعها كظاهرة أصبحت تلعب دوراً أساسياً في عمران تلك المدن. ولم يتوقف دور الوقف على الإمتداد الإنشائي للمدن المتمثل في كثرة المنشآت الموقوفة، بل إنه تعدى إلى جوانب إجتماعية أخرى تمثلت في رعاية أهل العلم من شيوخ، ومدرسين وطلاب ومُتصوفة، وما ناله الأطفال الأيتام من رعاية وتنشئة إجتماعية سليمة من خلال ما يجدونه في مكاتب الأيتام التي انتشر إنشاؤها ووقفها ووقف الأوقاف عليها، لتقوم بهذا الدور الذي يؤهل الأيتام إلى حياة علمية أكثر تقدماً، أو أن يكون مهيئاً لتعلم حرفة إذا ما كانت ميوله لا تتفق والإرتقاء العلمي. كما أدّت «البيمارستانات» «والأسبلة» وغيرها من المنشآت الخيرية الموقوفة دورها في تقديم الرعاية الصحية وتقديم الماء دون تكلفة إلى الإرتقاء بمستوى حياة المجتمع[٢١]. وامتد الوقف إلى نواحٍ أخرى من مناحي الحياة الإجتماعية، فيذكر ابن بطوطة أنّ من الأوقاف ما خصص لمساعدة العاجزين عن آداة فريضة الحج لتأديتها، ومنها ما خصص لفكاك الأسرى، ومنها ما خصص لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويُردون إلى بلادهم، وما خصص لتعديل الطرق ورصفها وما خصص لغسل وتكفين الموتى، بل إنّ منها خصص لدفع عوض عن الأواني التي تكسر تخفيفاً عن صاحبها وهوماً سمي وقف الأواني. ومن هنا كثرت الأوقاف كثرة واضحة لتعدد مناحي الخدمات التي تقوم بها. وكانت دمشق من أبرز المدن التي تنوعت أغراض الأوقاف فيها. حتى إن ابن بطوطة يذكر، وإنّ الأوقاف بدمشق لا

---

(٢١) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه: ص ٨٤

تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها»[٢٢].

ولا شك في أن رعاية المنشآت الموقوفة وكثرة إنشائها ورعاية المباني الموقوفة عليها وإدارة ذلك كلها إدراة جيدة تحقق مصلحة الوقف يكشف عن أهمية نظام الوقف وأثره في عمران المدينة الإسلامية خاصةً في الفترات التي ازدهرت فيها الأوقاف ابتداءً من العصر الأيوبي[٢٣].

---

(٢٢) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٨٤

(٢٣) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٨٥: نقلاً عن ابن بطوطه: الرحلة ص ٦٣-٦٦

الفصل الرابع

المنشآت والمرافق العامة في المدينة الإسلامية

تنوعت أغراض المنشآت العامة في المدينة الإسلامية، فمنها ما حقق أغراض الحياة الدينية، ومنها ما حقق أغراضاً مدنية، واختلفت وتنوعت هذه المنشآت من عصر إلى عصر آخر، ومن مدينة لتفي بحاجات الناس الجماعية، وتولت السلطة في المدينة إنشاءها والإشراف عليها، وشاركها أهل البر والمعروف الذين أسهموا في إنشائها، ووقفها ووقف الأوقاف عليها، ليرتفق بها العامة ويتحقق الغرض من إنشائها.

وإذا كانت الشوارع تشكل مظهراً مهماً وأساسياً من مظاهر تخطيط المدينة الإسلامية وجانباً من جوانب مرافقها العامة، فإن المرافق الأخرى، كالمساجد الجامعة والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات ومصادر الماء وغير ذلك من المرافق ومنشآتها المختلفة، هي من العناصر الهامة والمكملة للهيئة المادية للمدينة، كما أنها تعكس جانباً مهماً من جوانب الحياة فيها، كما تيسر دراسة هذه المرافق بهذا المنظور من الناحية الأثرية والمعمارية باعتبارها جزءاً هاماً من التراث المعماري للمدينة الإسلامية...

المنشآت الدينية:

تعددت المنشآت الدينية في المدينة الإسلامية، ويمثل المسجد الجامع الأساس الأول لهذه المنشآت التي تنوعت بتنوع وظائفها، والتي انبثقت أصلاً

من وظائف المسجد الجامع، وتطورت مرتبطة بظروف الحياة، السياسية والإجتماعية في العصور الإسلامية التاريخية المتتابعة. ومن هنا جاءت المساجد والمدارس والخانقات والرُبط والزوايا والتكايا في عداد هذه المنشآت التي لبَّت حاجات المجتمع الدينية والتعليم[1]

المسجد الجامع:

المسجد الجامع من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية لما له من دور أساسي في حياة مجتمعها. فبالإضافة إلى وظيفته الدينية كان مركزاً لبحث الشؤون السياسية والدينية والتربوية والإجتماعية[2].

ففي المسجد إستقبل الرسول عليه السلام سفراء الدول لتنظيم علاقاته بدولهم، وفيه كان يخطب في جماعة المسلمين وينظم شؤونهم، ويعلمهم أمور دينهم، وفي زمن الراشدين كان الخلفاء يعلنون من منبر المسجد الأحداث التي تواكب الفتوحات، ويرشدون الجيوش بخطب تسبق تحركهم[3]. وبعد أن إتسعت الفتوحات وامتدت الأمصار كان المسجد كالبلاط بحيث كان الأمير يلقي من فوق منبره خطبته الأولى يشرح فيها سياسته وخططه وإتجاهاته، ويطرح مبادىء الحكومة وواجبات الشعب ومسؤولياته، تلك الخطبة التي كانت تمثل دستور الحكم، ومسؤولية الحاكم، وواجبات الرعية، كما فعل زياد بالبصرة والكوفة[4]. واستمر المسجد الجامع في تأدية هذه الوظائف وأضيفت إليه بعض الوظائف الأخرى كالدرس والتصوف[5].

وحكمت هذه الأهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، فقد كان أول ما يختط، ومن حوله كانت تخطط خطط

(١) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة: ج١ ص ١٢٠-١٨٣

(٢) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية: المرجع السابق ص ٢٣٤

(٣) اليعقوبي: التاريخ: ج١ طبعة النجف ١٩٦٤ ص ١١٧-١٢٣

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف: طبعة القدس. ج٤ ص ٧٠-١٦٢

(٥) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية: المرجع السابق ص ٢١-٣٠-١٦٨-١٨١

المدينة، وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها. وكانت مدينة رسول الله ﷺ المثال الأول على ذلك، فقد كان مسجد الرسول أول شيء إختط في وسط المدينة ومن حوله إختطت خطط المهاجرين التي كانت في معظمها قطائع وخططاً تنازل عنها الأنصار للمهاجرين من كل فضل كان في خططهم. أو كانت في عفا من الأرض ليست لأحد فأقطعها الرسول أصحابه(٦). ومع نمو المدينة وتزايد سكانها صارت الحاجة ملحة إلى توسعة المسجد الجامع من فترة إلى أخرى، ليتسع لهذه الأعداد النامية من المصلين وأصبحت ظاهرة توسيع المسجد الجامع ظاهرة عامة في تاريخ الكثير من المساجد الجامعة في المدينة الإسلامية، كالمسجد الجامع في البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وقرطبة وغيرها. ويؤكد ذلك إستمرار هذه الظاهرة في الحرم المكي، ومسجد الرسول ﷺ في المدينة حتى وقتنا الحاضر لإستمرار زيادة أعداد المسلمين الذين يأتون من بقاع العالم الإسلامي للحج أو العمرة أو الزيارة والصلاة في كل منهما.

ومع تطور عمران المدينة الإسلامية وكثافة سكانها بمرور الزمن، باتت الحاجة ملحة إلى عدد أكبر من المساجد الجامعة، وإستناداً إلى فتوى الفقهاء بجواز تعدد الخطبة للحاجة، وصحة صلاة الجمعة بعدد من المصلين يصل إلى أربعين بدأت ظاهرة تعدد المساجد الجامعة بالمدينة الإسلامية في الإنتشار منذ القرن السابع الهجري(٧).

وبعد ذلك إنتشرت ظاهرة إنشاء المساجد الجامعة في المدينة الإسلامية، وكذلك الخانقات والزوايا حولت الكثير منها إلى مساجد جامعة بإضافة منبر وتعيين خطيب. وتعتبر القاهرة من المدن الإسلامية التي إنتشرت فيها هذه الظاهرة إنتشاراً واضحاً في عصر المماليك، وتبع ذلك ضمور تأثير المسجد الجامع في تخطيط شوارع المدينة(٨).

---

(٦) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٣٤
(٧) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٣٨
(٨) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٣٨

دار الإمارة والمسجد الجامع:

أوجبت الضرورة الوظيفية مجاورة دار الإمارة للمسجد الجامع. وكان بناء الرسول ﷺ، منزله ملاصقاً للمسجد الجامع المقال الأول الذي إتبع في إنشاء دار الإمارة للمسجد في المدن الناشئة(٩) والمفتوحة على حد سواء. وحدث تطور آخر أدى إلى إلتصاق دار الإمارة بالمسجد الجامع ويقال إن هذا التلاصق إرتبط بحادثتين تاريخيتين: الأولى وقعت في الكوفة سنة ١٧ هـ حين كان سعد بن أبي وقاص والياً عليها من قبل عمر بن الخطاب، إذ كان سعد يسكن داراً بينها وبين المسجد طريق، فتسلل أحد اللصوص إلى هذه الدار بعد أن ثقب جدارها، واستطاع أن يسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، وشكا سعد للخليفة فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقاً للدار التي يسكنها(١٠)

أما الحادثة الثانية فقد وقعت بالبصرة سنة ٤٤ هـ حين كان زياد بن أبيه والياً عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان، إذ رأى زياد عندما كان يقوم بتجديد المسجد أنه ينبغي ألا يمر بين المصلين عند توجهه إلى المحراب، فحول دار الإمارة إلى قبلة المسجد ليستطيع الوالي أن يخرج منها إلى الباب في جدار القبلة مباشرة(١١).

وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً معمارياً في قصور الخلفاء ودور الإمارة في المدن المختلفة تحقيقاً للغرض الذي هدف إليه زياد، وهو ألا يتخطى الخليفة أو الوالي رقاب المصلين بل ينفذ مباشرة من جدار القبلة. وفي ذلك ما يؤكد على الحرص الشديد على تنفيذ ما ورد في حديث رسول الله ﷺ. عن عبد الله بن بشر قال: «رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب فقال له رسول الله ﷺ: «إجلس فقد آذيت» رواه أبو داوود والنسائي وأحمد زاد «وأنيت». وعن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي: أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الإثنين بعد خروج الإمام كالجاز تصبه في النار»

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف ص ٢٧٥

(١٠) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٢٣٩

(١١) البلاذري: فتوح البلدان. دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ١٩٨٣ ص ٣٤٢

رواه أحمد[١٢].

واستتبع تأمين دار الإمارة عزلتها عن مساكن العامة والأسواق التي جرت العادة على إنشائها قريباً من المسجد الجامع. وبدأ الحجاج ذلك في واسط عندما ربط بين القصر والجامع وأطراف المدينة بشوارع رئيسية أربعة، وهو إتجاه برز جلية في بغداد أيضاً عندما اقتصرت المنطقة المركزية على المسجد الجامع وقصر الخلافة والدواوين[١٣] وأحاط بها سور ليعزلها عن المناطق السكنية خارجها، وكان يربطها بأبواب المدينة الخارجية أربعة طرق رئيسية تصب فيها الطرق الدائرية للمناطق السكنية[١٤].

وفي المدن التي إنفصل فيها المسجد الجامع عن القصر أو دار الإمارة ربطت بينهما شوارع متسعة تتسع لمواكب الخلفاء والولاة أثناء خروجهم إلى الصلاة، كما كان في سامراء عندما جعل الخليفة الشارع إلى المسجد الجامع متسعاً سهل المرور لا يضيق عليه في الجمع إذا حضر وجموعه بخيله ورجله. وما كان في القطائع حيث ذكر المقريزي أن من أبواب الميدان والقصر لابن طولون باب الصلاة، وكان على الشارع الذي يصل القصر بالجامع[١٥]. وكذلك كان في القاهرة حيث كان الجامع الأزهر جنوبي القصر يخرج إليه الخليفة في موكب رائع، وكانت القاهرة كلها مخططة على الرسم الملكي الذي يفي المراسم المختلفة التي إتسم بها الفاطميون.

ودعت الحاجة الأمنية إلى ربط المسجد الجامع بالقصر، أو دار الإمارة، عن طريق ساباط يؤدي بالخليفة أو الوالي إلى المقصورة مباشرة، دون تخطي رقاب المصلين كما كان في قرطبة وأشبيلية، أو إلى الموضع الذي يختاره الحاكم للصلاة فيه خلف الخطيب الذي ينيبهُ في الأمانة كما كان في الدرعية[١٦].

وجرت العادة على أن يتخذ القضاة من المسجد الجامع مجلساً للحكم، وتلا

---

(١٢) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٣٩
(١٣) اليعقوبي: التاريخ ج١ ص ٢٤
(١٤) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٢٤٠
(١٥) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٤٠
(١٦) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٤٠

ذلك توجيه للقاضي بأن يجلس للحكم في موضع واسع من وسط المدينة، ولا يكون في المسجد لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأة الحائض أو الذمي أو الصبي أو الحافي، وقد ترتفع الأصوات ويحدث اللغط فيه عند إزدحام الناس ومنازعتهم للخصوم وكل ذلك ورد الشرع بالنهي عنه(١٧). وقوبل هذا التوجيه بإمكان إتخاذ المسجد الجامع مقراً للقاضي ليصل إليه أهل البلد والغريب بسهولة، مع إتخاذ الإجراءات التي تجنب الجامع ما قد يؤذيه من المخالفات، ولاسيما أن الرسول ﷺ كان يفصل بين الخصوم في المسجد، وكذلك كان الخلفاء الراشدون(١٨)

وسواء كان مقر القاضي بالمسجد الجامع، أو بمكان آخر بوسط المدينة يتعرف عليه بسهولة، فكلا الأمرين يشير إلى أن تحديد موضع القضاء كان في وسط المدينة ومارس الخلفاء والحكام النظر في المظالم أيضاً في أيام محددة وحددت مواضع للحكم في القصر، كسقيفة المظالم بالقصر الفاطمي(١٩). ودار العدل بقلعة القاهرة. مما سبق يتضح التركيز على وضع المسجد الجامع وقصر الحكم أو دار الإمارة والدواوين ومركز القضاء في قلب المدينة بإعتبار أنها جميعاً تمثل مركز الإدارة في المدينة سواء أكانت المدينة قائمة بذاتها، أم كانت (قاعدة إقليم معين، أم عاصمة الدولة(٢٠). وهو إتجاه يبرز أهمية المدينة الإدارية من جهة، ويؤكد على أن المدينة الإسلامية كان لها جهازها الإداري الذي يشرف على جميع شؤونها كالوالي والقاضي والمحتسب وصاحب الشرطة، وما يتبع هؤلاء من موظفين في مستويات مختلفة في هيئة مؤسسات رسمية حكومية كفلت إدارة المدينة بمنظور إسلامي واضح(٢١). وبالإضافة إلى المساجد الجامعة أنشئت المساجد في خطط المدينة المختلفة لخدمة هذه الخطط، وتعددت أمثلتها في الخطة الواحدة وارتبطت كثرة إنشائها بعوامل دينية وإقتصادية وإجتماعية مختلفة..

---

(١٧) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٤٠

(١٨) الموصلي: الاختيار لتعليل المختار. طبعة الأزهر، ج٣ ص ١١٦

(١٩) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤١

(٢٠) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٤١

(٢١) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٤١

وكان مصلى العيد من بين هذه المنشآت الدينية العامة، وغالباً ما أنشيء خارج أسوار المدينة، لاتساع مساحتها، واقتصار إستخدامها على صلاة العيدين واختيرت لها مواضع مناسبة إرتبطت بتخطيط المدينة وشوارعها وأبوابها.

المدارس:

مع نهاية القرن الخامس الهجري ظهرت إلى حيز الوجود في المدينة الإسلامية منشآت دينية أخرى، إرتبط ظهورها وإنتشارها بأحداث العالم الإسلامي في ذلك الوقت، كالمدارس التي بدأ إنشاؤها في مدن شرق العالم الإسلامي على يد فقهاء السنة، وتبنتها الدولة وأصبحت مؤسسات رسمية عنيت بإنشائها لتخريج أجيال من المتفقهين بالمذهب السني، وتغذي الجهاز الإداري للدولة بما يحتاج إليه من موظفين في دواوينها المختلفة، وإهتم السلاجقة والأتابكة والأيوبيون بإنشاء هذه المدارس ووقف الأوقاف عليها، وتبعهم المماليك الذين أكثروا بصفة عامة من إنشاء المنشآت الدينية، ومن بينها المدارس التي وصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والإدارة والمستوى العلمي الذي ينعكس بصورة جلية في الموسوعات العلمية والتاريخية والمخطوطات الأخرى التي تزخر بها المتاحف والمكتبات العالمية، وأرست هذه المدارس نظام وتقاليد علمية راسخة[٢٢] تأثرت بها وأتبعتها الجامعات الأوروبية، وما زالت مستمرة حتى الآن[٢٣].

وساعد نظام الوقف مساعدة بالغة على إنشاء هذه المنشآت بإعتبارها منشآت موقوفة، وعلى إستمرارها في أداء وظيفتها باستمرار الأوقاف الموقوفة عليها. من أراضي وعقار كانت في الغالب منشآت مدنية كالمقصورات والوكالات والرباع والخانات والحوانيت وغيرها من «المسقفات» التي كان يهتم بعمارتها ليستمر توارد ريعها للصرف منه على المنشآت الدينية الموقوفة، وإهتم أيضاً بإستغلال فائض الريع في شراء وإنشاء مبانٍ أخرى تُزيد الأوقاف وتنميها.

---

(٢٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية: ج١ ص ٣٣-٥٦

(٢٣) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤٢

كل ذلك إنعكس بصورة أو بأخرى على المظهر المادي للمدنية الإسلامية من عصر السلاجقة حتى العصر العثماني[٢٤].

مُنشآت التصوف:

وكانت منشآت التصوف من خانقات وزوايا وأربطة أيضاً من نوعيات المنشآت الدينية التي تلازم ظهورها مع ظهور المدارس. وقد مرّ التصوف الإسلامي بمراحل تطور مختلفة بدأت من مظهر الزهد والتقشف في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين إلى مظهر ترك الحياة الدنيا والتفرغ للعبادة الفردية في العصر الأموي. وإشتد هذا التيار قوة في عهد العباسيين وبدأت ظاهرة التعدد والتنظيم الجماعي لفئات المتصوفة، ودخلت الدولة في صراع معهم تحت تحريض الفقهاء، وقوّى ذلك من عزم هذه الفئات وساعد على تبلور نظامها وعلى إنتشار أفكارها، وإزدياد أعداد المتصوفة، ومع كثرة أعدادهم وتبلور نظامهم وإستقرار قواعد ومناهج التصوف كانت مهادنة الدولة إياهم والإعتراف بهم فأنشئت لهم مبانٍ خاصة بهم، يختلون فيها للعبادة ويقيمون فيها إقامة تامة أطلق عليها «الخانقات». بدأ إنشاؤها في نهاية القرن الخامس الهجري، ووقف الأوقاف الكثيرة عليها، وبدأ الإتجاه السياسي في إعتمادها أداة من أدوات نشر المذهب السني، مما ساعد على إنتشارها. فقد أدخلها صلاح الدين إلى مصر بعد القضاء على الفاطميين لتدعيم نشر المذهب السني، وإعتمد إنشاؤها على المماليك، وتطورت تطوراً كبيراً في عهدهم حيث حدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة في هذا العصر، وأصبح هناك ما يسمى «الطالب المتصوف» و«المتصوف الطالب» فأدت المدرسة وظيفة الخانقات وأدت الخانقات وظيفة المدرسة.

وظهرت طرائق ومناهج مختلفة في التصوف لكل منها شيوخه، وإنتشرت هذه الطرائق في البلاد الإسلامية كالرفاعية والنقشبندية والكيلانية وغيرها، فأنشئت لها زواياها الخاصة بها، وأصبحت الزوايا أيضاً من مباني المتصوفة التي إنتشرت بجانب الخانقات.

مما سبق يتضح أن المدارس ومنشآت التصوف أصبحت من التكوينات

(٢٤) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٢

المعمارية الدينية في المدينة الإسلامية، وإزداد أعداد هذ المنشآت زيادة واضحة ولاسيما أنها كانت بالإضافة إلى وظائفها الأساسية تستخدم كمساجد أو مساجد جامعة وقد كثر الإتجاه إلى إنشاء هذه المنشآت الدينية خصوصاً لأن الذين يدعون إلى الإهتمام بعمارتها وإنشائها، كما أن هناك من العوامل الأخرى السياسية والإجتماعية والإقتصادية ما دفع إلى الإكثار من إنشائها ووقف الأوقاف عليها[٢٥]. فشكلت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية تدل عليه بعض الإحصاءات التي ترد في المصادر التاريخية، فيسجل ابن حوقل الموصلي - مثلاً - مشاهداته في بالرمو بجزيرة صقلية التي خضعت للفاطمين ويقول: «رأيت فيها من المساجد ما رأيت في شيء من البلاد، حتى رأيت على مقدار غلوة سهم أكثر من عشرة مساجد ورأيت بعضها تجاه بعض[٢٦]».

وفي قرطبة يذكر المؤرخون أن فيها «من المساجد ثلاثة عشر ألف وثمانمائة مسجد ونيفاً وسبعين وكان بَرْبضْ شقندة ثمانمائة مسجد»[٢٧] ويشير ليو الإفريقي «إلى أنه كان بفاس» قرابة سبعمائة جامع ومسجد، والمساجد عبارة عن أبنية صغيرة للصلاة ويوجد بين هذه الجوامع خمسون كبيرة جيلة البنيان[٢٨].

ويدخل في هذه الإحصاءات المساجد التي كانت في المنازل والملحقة بالمنشآت التجارية كالوكالات والمقصورات وغيرهما والمساجد الصغيرة، والمساجد الجامعة، ومساجد المدارس ومنشآت التصوف. ويؤكد الواقع الأثري لما بقي من مساجد بعض المدن الإسلامية هذه الكثرة، فشارع المعز لدين الله في القاهرة الفاطمية. وما يصطف على جانبيه من منشآت دينية مثال جيد على هذه الكثافة في القاهرة، وكذلك كان الحال في غيرها من المدن الإسلامية التي تحتفظ بالعديد من مساجدها الأثرية كإسطانبول وغيرها.

---

(٢٥) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية ص ١٨٠-١٨٧

(٢٦) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤٤

(٢٧) حسين مؤنس: الخبر عن قرطبة ومحاسنها: صحيفة معهد الدراسات الاسلامية. مدريد مجلد ١٣ سنة ١٩٦٥-١٩٦٦ ص ١٦٥

(٢٨) ليو الأفريقي: وصف أفريقية. ترجمة د. محمد حجي. د. محمد الأخضر نشر دار المغرب الاسلامي. بيروت ١٩٨٣ ص ٢٢١-٢٤٩

وقد ساهمت هذه المنشآت بما تشتمل عليه من وحدات معمارية أخرى تستخدم كمرافق عامة كالميضآت والأسبلة والكتاتيب والمكتبات ووحدات سكنية في توفير خدمات عامة للقاطنين في المدينة الإسلامية والواردين إليها.

وكان لكل منشأة من هذه المنشآت جهازها الإداري المستقل المسؤول عن إدارتها ورعاية أمورها، سواء أكان جباية ريع أوقافها وصرفه حسب ما تحدده وثيقة الوقف أم مباشرة ما يتعلق بأداء وظائفها من صلاة وتدريس وتصوف. وكفلت الدولة بسلطاتها القضائية والتنفيذية رعاية هذه المنشآت من خلال ديوان الأوقاف الذي يختص بشؤونها ورعاية مصالحها، فإستمرت في أداء وظيفتها وشاركت مشاركة قوية في بناء حياة المجتمع وحضارته[٢٩].

مما سبق يتضح أن المنشآت الدينية الإسلامية كان منها ما هو عام الإرتفاق لكل المسلمين في المدينة الإسلامية كالمساجد والمساجد الجامعة، ومصلى العيد، ومنها ما كان عام الإرتفاق في حدود شروط الوقف التي ربما تحدد نظاماً للإرتفاق كالمدارس والخانقات والزوايا والرُبط والمشاهد وغيرها. كما يتضح أن من هذه المنشآت ما ينشأ بمعرفة سلطات المدينة الرسمية، ومنها ما يتولى العامة إنشاءه. ووقف الأوقاف عليه ليستمر في أداء وظائفه تحت رعاية السلطة ممثلة في ديوان الأوقاف وفي ذلك ما يدل على الجهود المتكاملة بين السلطة والعامة في إنشاء هذه النوعية من المنشآت العامة[٣٠].

الحمامات العامة

وهناك من المنشآت المدنية ما أنشيء لخدمة العامة من سكان المدينة الإسلامية، كالحمامات العامة التي كثر إنشاؤها في المدينة الإسلامية لحاجات وظيفية مُرتبطة بدعوة الإسلام للنظافة والتطهر، ويعدم قدرة العامة جميعاً على تضمين منازلهم حمامات خاصة، وبرغبة القادرين على إنشاء هذه الحمامات في إستثمار أموالهم في إنشائها لما تدُرُهُ من ريع وفير لشدة الطلب عليها. ومن هنا كثرت الحمامات العامة في المدينة الإسلامية كثرة واضحة، ونظمت سلطات

---

(٢٩) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤٤-٢٤٥

(٣٠) محمد عبد الستار عثمان: المصدر نفسه ص ٢٤٦

المدينة إنشاءها وما يتصل بذلك من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف، وما يصدر عن بنائها من دخان تحكم أحياناً في تحديد مواضعها ووحداتها.

وحُرِصَ في تصميم الحمامات الإسلامية على طهارة الماء مما يستوجب تصميم أحواض الماء وقنواته بطريقة معينة تكفل ذلك. كما نظمت الأحكام الفقهية الإسلامية العمل داخل هذه الحمامات، وخضعت لإشراف المحتسب خضوعاً مباشراً يكفل إستمرار عملها وفق القواعد والقيم الإسلامية. وتمشياً مع هذا الإتجاه أنشئت حمامات خاصة للنساء وأخرى للرجال وهناك من الحمامات ما إستخدم بواسطة الرجال في أوقات محددة، وللنساء في أوقات أخرى، وألحقت ببعض المجموعات المعمارية الدينية الضخمة حمامات خُصصت لخدمة أهلها. بالإضافة إلى خدمة العامة، كحمام شيخو وحمام المؤيد شيخ بالقاهرة. ومن طريف ما يُذكر أنه كان يصرف للطلاب في بعض المنشآت الدينية التي لا تشتمل على حمامات مخصصات شهرية للإستحمام بالحمامات العامة(٣١). مما يؤكد على أن الإستحمام في الحمامات العامة كان سلوكاً إجتماعياً عاماً جرت العادة به في المدينة الإسلامية. وكان للحمام دور واضح في الحياة الإجتماعية في المدينة الإسلامية ومناسباتها.

وكثرت الحمامات كثرة بالغة إرتبطت بالحاجة إليها والرغبة في إنشائها لما تدره من ريع وفير فمع نمو المدينة تزداد الحمامات التي بها. وتكشف روايات المؤرخين عن إحصاءات عديدة لهذه الحمامات توضح ذلك، فقد أحصى اليعقوبي «ت ٢٨٢ هـ» حمامات بغداد بعشرة آلاف حمام(٣٢) وأحصاها الصابي ٤٤٨» هـ» بستين ألفاً(٣٣). ويكشف الفارق بين الإحصائين عن الزيادة في عددها إنعكاساً في نمو المدينة في هذه الفترة. ومن طريف ما يذكر أن بعض الإحصاءات ربطت بين مواضع الحمامات وإحصائها، وبين المساجد بالمدينة. فقد ذكر إبن كثير أنّ ببغداد ستين ألف حمام بإزاء كل حمام خمسة مساجد(٣٤) وإذا كانت

---

(٣١) محمد عبد الستار عثمان: المصدر نفسه ص ٢٤٦-٢٤٧

(٣٢) اليعقوبي: المصدر السابق ص ١٤

(٣٣) الصابي: رسوم دار الخلافة. تحقيق ميخائيل عواد ص ١٩-٢٠

(٣٤) ابن كثير: البداية والنهاية: طبعة ١٩٣٢ ج٩ ص ١٠٣

إحصاءات الحمامات في كثير من الروايات التاريخية تبدو عليها مسحة المبالغة، فإنها بالرغم من ذلك تدل على أن الحمامات العامة كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية للمدينة وتكشف عن ذلك بقايا هذه الحمامات في بعض المدن الإسلامية كالقاهرة وفاس وقرطبة وغيرها، وما ورد في وثائق الوقف من أوصاف لهذه الحمامات باعتبارها من المنشآت الموقوفة على المباني الدينية. وجدير بالذكر أن الحمام في المدينة كان من بين التكوينات المعمارية التي تعددت الآراء بشأن أصلها، وإختلفت هذه الآراء إختلافاً يوضح أثر منهج البحث الذي تناولها، فيرى «بلا نهول» أن الحمام في المدينة الإسلامية هو الثرما Therma، أي الحمام اليوناني القديم(٣٥). ويخالفه في ذلك «جرنباوم» حيث يعتقد أنّ الحمام الإسلامي لا يمكن أن يكون وريث الحمام اليوناني(٣٦). بينما يرى «بلباس» أن الحمامات الإسلامية مُشتقة من الحمامات الرومانية التي أثرت في المسلمين مباشرة. أو من طريق الحمامات البزنطية أو السورية في القرون الأولى للميلاد التي كانت بيئة أبسط لأنها أنشئت لأناس ليست لهم أهمية إجتماعية(٣٧).

وإذا كانت الحمامات الإسلامية قد إستفادت من الأشكال المعمارية للحمامات السابقة عليها فإن الصياغة المعمارية للحمام الإسلامي كانت وفق القيم الإسلامية ولاسيما فيما يتعلق بطهارة الماء أو تحقيق الفائدة العملية من إنشائها في سبيل خدمة العامة مما أكسب إنشاءها مظهراً معمارياً مختلفاً بتنوع القدرة على إنشائها وظروف المساحة المتوفرة(٣٨).

البيمارستانات:

وتعتبر «البيمارستانات» أيضاً من المنشآت التي أنشئت لتوفر الخدمات العلاجية والطبية للعامة، وواكب إنشاء البيمارستانات النمو العمراني للمدينة الإسلامية. وكان الوليد بن عبد الملك أو من أنشأ البيمارستان في الإسلام(٣٩)

(٣٥) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤٨
(٣٦) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٨
(٣٧) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٨
(٣٨) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٨
(٣٩) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٩

وكان ذلك في سنة ٨٨ هـ، كما إهتم بتخصيص مرتبات مالية للعميان والزمنى والمجذوبين. وأخدم كل واحد منهم خادماً[٤٠] وذكر أن بيمارستان المجذوبين الذي أنشأه في دمشق كان يقع بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى اليوم بالأعاطلة[٤١].

وتتابع إنشاء البيمارستانات في المدن الإسلامية، وتولى غالباً إنشاءها السلاطين والأمراء وأشرفوا على بنائها ووقف الأوقاف عليها لتستمر في أداء وظائفها. ومن البيمارستانات التي تعكس هذا المستوى الحضاري المتقدم بيمارستان «أحمد إبن طولون في القطائع» الذي إشترط فيه ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك[٤٢]. لإتاحة الفرصة لعامة غير القادرين على نفقات العلاج، ومنها البيمارستان القلاووني الذي أنشأه السلطان قلاوون، وكان سبب إنشائه هو زيارته وهو أمير لبيمارستان نور الدين بدمشق لما أصابه من مرض، فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك ليبنين بيمارستان، فلما تولى السلطة بنى هذا البيمارستان وقال حين وقفه: وقفت هذا على مثلي ومن دوني وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والإناث»[٤٣] ويشير نص الوقف على أنَّ البيمارستان وقف لخدمة جميع فئات المجتمع وأصبح بعد وقفه مرفقاً عاماً.

واشتمل ألبيمارستان على أقسام للعلاج المتنوعة، فكان فيه قاعة لمرض الحميات، وأخرى للرمد، وثالثة للجراحة، ورابعة لمن به إسهال، وكان فيه قاعة ومكان للمبرودين ينقسم إلى قسمين، قسم للرجال وآخر للنساء، وزود بمطبخ لتجهيز طعام المرضى، وكان فيه موضع للأدوية والأشربة، ومكان لترتيب المعاجين والإكحال وغيرها. وبلغ التكامل ذروته عندما قرر به مكاناً لتدريس الطب[٤٤]. ونظراً لتكاليف الإنشاء الضخمة والمصاريف الكثيرة للبيمارستانات

---

(٤٠) عمر أبو النصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية ١٩٦٢ ص ٦١

(٤١) لطف الله قاري: نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي: دار الرفاعي للنشر، الرياض ١٩٨٦ ص ١١٦

(٤٢) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية ص ٢٤٩

(٤٣) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٤٩-٢٥٠

(٤٤) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٥٠

فقد إختصت القدرة على إنشائها بالسلاطين والحكام، وكان الدافع وراء إنشائها خيرياً في المقام الأول، وقد بقيت آثار بعض هذه البيمارستانات في بعض المدن الإسلامية كبيمارستان «فوجي» في آسيا الصغرى الذي بناه أحمد شاه، ويعتبر من أروع البيمارستانات القائمة في المدن الإسلامية وأقدمها. فقد بني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي(٤٥)

مما سبق يتضح أن المنشآت العامة في المدينة الإسلامية شكلت نسبة واضحة من التكوينات المعمارية الأخرى، فاندفع عمران المدينة، بعدما شكلت موطن جذب لسكانها لتوفر هذه الخدمات ممثلة في هذه المرافق المجسدة معمارياً في هذه المنشآت. وغالباً ما كان إنشاء هذه المنشآت من منطلق على الخير والمعروف الذي تبارت فيها الطبقة الحاكمة من سلاطين وحكام وأمراء وطبقة الأثرياء ممن يملكون القدرة على إنشاء هذه المنشآت، ويقفونها ويقفون الأوقاف عليها لتستمر في أداء وظائفها، وكانت تلك الأوقاف تسجل في «ديوان الأوقاف» الذي يتولى الإشراف عليها وفق نظام الوقف وأحكامه، ويعني ذلك مسؤولية السلطة في الإشراف على هذه المنشآت من سطلق المحافظة عليها وإستمرار أدائها لوظائفها، تحقيقاً للغرض من وقفها وإنشائها أصلاً، وبذلك إستمرت هذه المنشآت وكثرت كثرة واضحة في عصور إزدهار المدن التي أنشئت فيها، فساهمت في تطوير حياة مجتمعاتها تطويراً إنعكست آثاره على مظاهر حياة مجتمع المدينة الإسلامية في تلك العصور.

تغذية المدينة بالماء:

تحكم الماء إلى حد كبير في إختيار موضع المدينة، وطالما أشاد الجغرافيون والبلدانيون المسلمون بالحواضر التي يتوافر فيها الماء العذب(٤٦).

وعدت عذوبة الماء من المميزات الرئيسية التي تميز مدينة عن أخرى. فمثلاً

---

(٤٥) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٥٠

(٤٦) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٦٧. نقلاً عن ضياء الدين علوي: الجغرافية العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. ٤١٣ هـ، ترجمة عبدالله يوسف الغنيم، د. طه محمد جاد ا الكويت ١٩٨٠ ص ١٧٧-١٨٠

يصف القزويني بغداد فيقول: «أم الدنيا، وسيدة البلاد، وجنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، ومعدن الطرائف، ومنشأ أرباب الغايات. هواؤها ألطف من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء وتربتها أطيب من كل تربة، ونسميها أرق من كل نسيم»(٤٧).

وتشير الروايات التاريخية والآثار الباقية للمنشآت المائية في المدن الإسلامية إلى مدى إهتمام. السلطة بتوفير الماء العذب للمدن الإسلامية، ومدى مشاركة العامة في التعاون على إنشاء المنشآت المائية والمحافظة عليها في إطار يكفل لسلطات المدينة تنظيم الإرتفاق بها إذا كانت منشآت عامة، ويحدد القضاء القواعد والأسس التي تحكم ما هو خاص بها. ومن هذه الروايات التي تشير إلى مدى إهتمام الحكام بتوفير الماء ما ذكره البغدادي من أن المنصور «مَدَّ قناة من نهر دُجيل المأخوذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا المأخوذ من الفرات، وجرهما إلى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر أعلاها، وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض(٤٨)، صيفاً وشتاء(٤٩). وحدث ذلك بعد إنتقاد «الرومي» ضيف الخليفة نقل الماء على الدواب إلى تكويناتها المختلفة، ولا شك في أن توصيل الماء إلى المدينة عن طريق القنوات المذكورة كان له أثره المباشر في نظافتها، التي تتأثر بحركة مرور الدواب الناقلة للماء بها.

وفي سامراء شق المتوكل من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان جامع سامراء وتتخللان شوارعها، وشق نهراً آخر للمدخول في الحير(٥٠).

وقد تنوعت أساليب تغذية المدينة بالماء بتنوع مصادره كالأنهار والعيون والآبار والأمطار. وبإختلاف مواضع هذه المصادر قرباً أو بُعداً، باستثناء المطر الذي إختلفت مواعيد وفترات وكميات سقوطه، ونفذت الأساليب التي توافق

---

(٤٧) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٦٨

(٤٨) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٦٩

(٤٩) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والإجتماعي. طبعة ٧، ١٩٧٤ مكتبة النهضة العربية. ج٢ ص ٢٥٣-٢٥٤

(٥٠) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٢٦٩

كل مصدر بحيث يسهل في النهاية توصيل الماء إلى تكوينات المدينة المختلفة.

فالمدن التي تعتمد على مياه الأمطار عملت بها مصايد الماء والصهاريج والمواجل والمصانع التي يتجمع فيها المطر في موسم سقوطه، ومن ثم يستخدم طوال العام من هذه الخزانات، وتتضح آثار ذلك في المدن التي تعتمد على مياه الأمطار فقد كشف في «الربذة» عن العديد من المنشآت التي تساعد على الإستفادة من ماء المطر وتخزينه للإستفادة منه في الأغراض الحياتية المختلفة وتنوعت هذه المنشآت بين المصافي والبرك، والصهاريج التي إنتشرت في المنازل لتخزين الماء(٥١). وكشف المسح الأثري لدروب الحج في المملكة العربية السعودية عن العديد من هذه المنشآت التي تشتمل عليها المدن والمحطات التي تقع على هذه الدروب، وزاد الإهتمام بها بصفة خاصة لتلبية حاجات قوافل الحج التي تنزل بهذه المدن والمحطات. والتي تحتاج إلى كميات من الماء تفوق حاجة القاطنين فيها وتكفي هؤلاء الحجاج أثناء إقامتهم فيها(٥٢).

ويعتمد الكثير من مدن الشمال الأفريقي والمغرب العربي على ماء الأمطار ولاسيما تلك المدن التي لا يتوفر بها مصدر غيره، ومن ثم إنتشرت المنشآت المائية التي تساعد على خزن الماء كالصهاريج والمواجل والأحواض الكبيرة أو البرك في هذه المدن(٥٣).

وفي المدن التي إشتملت على العديد من هذه المنشآت تونس فقد إشتهرت بموجلها الكبير الذي أنشىء خارجها(٥٤). كما أن بيوتها إشتملت على العديد من المواجل الصغيرة التي شاع إستعمالها في تجميع ماء المطر. والمهدية التي ذكر القزويني «أن شرب أهلها من الصهاريج البالغ عددها ثلثمائة وستون صهريجاً

---

(٥١) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٦٩-٢٧٠. نقلاً عن د. سعد عبد العزيز الراشد صورة للحضارة الاسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية. نشر جامعة الملك سعود سنة ١٩٨٦ ص ٢٤٤

(٥٢) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٧٠. نقلاً عن مجلة اطلال: نشر الادارة العامة للآثار. المملكة العربية السعودية: مجلد ١-٧

(٥٣) ليو الافريقي: المرجع السابق ص ٣٠٥

(٥٤) محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ٢٧٠

بعدد أيام السنة يكفيهم كل يوم صهريج إلى تمام السنة مجيء المطر في العام المقبل»[٥٥]

وأنشئت كذلك «المواجل الخاصة» والتي تخدم التكوينات المعمارية في المدن التي تعتمد على ماء المطر، ويظهر ذلك جلياً فيما كشف من مواقع أثرية كالربذة إحدى محطات الحج على درب زبيدة[٥٦]. وما إشتهرت به مدينة تونس التي إنتشرت فيها المواجل التي يتجمع فيها ماء المطر لإستغلاله بعد ذلك. وقد صُمم تصميماً يكشف عنه أسلوب بنهائها الذي أشار إليه إبن الرامي عندما ذكر أن العرف في بناء «المواجل أن يجعل لها بابان ينزل منه ويكون واسعاً في وسطه داموسة، وباب آخر يستقى منه ويكون ضيقاً في جنب الماجل»[٥٧] وحتى يمكن إستغلال أي كمية من ماء المطر وتخزينها بهذه المواجل إتجه تصميم أسقف التكوينات المعمارية بميل معين في إتجاه فتحات هذه المواجل بحيث تتجمع فيها مياه المطر نتيجة إنحدارها مع هذا الميل إلى فتحات المواجل وقد حددت أحكام الفقهاء نظام إنشائها وإستغلالها والإستفادة من مائها، ولاسيما في حالات التنازع الناتج عن المعاملات المختلفة من بيع وشراء وتبادل وقسمة وغير ذلك[٥٨].

---

(٥٥) محمد عبد الستار عثمان: المرجع نفسه ص ٢٧٠
(٥٦) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٧٠، نقلاً عن سعد عبد العزيز الراشد. ص ٤٤-٤٥
(٥٧) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٧١
(٥٨) محمد عبد الستار عثمان: نفسه ص ٢٧١

الفصل الخامس

الحسبة في الإسلام

«الحسبة أو «الإحتساب» إسم منصب في الدولة الإسلامية كان صاحبها بمنزلة «مراقب للتجار» وأرباب الحرف يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومصنوعاتهم ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصحيحة.

هذه هي الحسبة، كما حددها لنا أكثر المؤرخين. وأما الكتب الفقهية فإنها تذكر للمحتسب مهاماً وحقوقاً كثيرة: أدبية ودينية وعمرانية وقضائية. وتجعل منصب «الحسبة» من أخطر المناصب وأوسعها نظراً، ولو أردنا أن نجد للمحتسب «الفقهي» شبيهاً في الوقت الحاضر لإضطرارنا إلى القول بأنه يشبه «رئيس البلدية، ومدير الصحة، ومدير الإعاشة، ورئيس الشرطة الأخلاقية، ومدير الشؤون الإجتماعية، بل هو... كل أولئك، وزيادة[1].

المدينة الإسلامية وإدارتها:

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حياة يغلب عليها التنقل وعدم الإستقرار وبمجيء الإسلام انتقل العرب من أسلوب حياتهم وتقاليدهم القديمة إلى نمط جديد وإلى مثل عليا جديدة جاء بها الإسلام. وكانت لغتهم الحية التي أنزل بها القرآن الكريم وطموحهم عاملان أساسيان لنقل الحضارات الفارسية واليونانية

(١) منير العجلاني: عبقرية الاسلام في أصول الحكم. الطبعة الثانية دار الكتاب الجديد ١٩٦٥ص٥٩-٦٠

والرومانية ولم يكتف المسلمون بالنقل بل صححوا ما نقلوه وأضافوا إليه وطوروه.

وكانت الحضارة الإسلامية الجديدة سبباً لنشوء المدن الإسلامية التي أصبحت مركزاً للحياة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والفكرية، ففيها أقيمت الأسواق والمتاجر، وأنشئت المدارس والجامعات، وعقدت مجالس الفكر والأدب والشعر، وأقيمت المساجد التي كانت المركز الرئيسي للمدن الإسلامية حيث تتوزع فيها الشوارع والأسواق. وكانت أقدم المدن التي أنشأها المسلمون: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط. وقد أقيمت في الأساس لأهداف عسكرية على غرار القاهرة التي أنشأها الفاطميون وبغداد التي أنشأها العباسيون[٢]. والواقع أن تطور المدن وانتقال الناس إليها واستقرارهم فيها، أدى إلى إقامة الصناعة والتجارة ونمو الحياة الإقتصادية، وباتساع المجتمع الإسلامي، وتعدد ميادين الأنشطة الإقتصادية فيه كانت الضرورة ملحة لتنظيم هذا المجتمع على أسس إسلامية تحول دون اضطراب الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية[٣].

وبعد الفتوحات الإسلامية أصبح للمسلمين أسواق ثابتة مثل أسواق: البصرة وحلب وحماه وعكا وبغداد كما أن الأسواق الموسمية السابقة للإسلام مثل: عكاظ ودومة الجندل وصنعاء وعدن وتبدل طابعها القديم وأصبحت ثابتة نتيجةً للتطور الإجتماعي والإقتصادي والسكاني والبيئي. ومن يطلع على كتب ابن جبير (الرحلة) ليدن ١٩٠٧، وابن بطوطة (تحفة الأنظار) باريس ١٨٧٤-١٨٧٩، يتعرف على كثير من المعلومات الفريدة عن الأسواق الإسلامية وأوضاع البلدان بشكلٍ عام[٤].

وقد عرفت المدينة الإسلامية نظام مراقبة الأجانب الذين يدخلون إلى المدينة، حيث ترصد تحركاتهم سواء من الناحية السياسية أو التجارية، كما عرفت المدينة الإسلامية نظام الشرطة التي كانت تنقسم إلى قسمين: الشرطة النهارية

(٢) حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية بيروت ١٩٨٩ ص ٦٢

(٣) حسان حلاق: المرجع نفسه ص ٦٢

(٤) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الاسلامية: المرجع السابق ص: ٤٩ - ٨٧

والشرطة الليلية (العسس)، وكانت الأولى تهتم بشؤون الناس في النهار، بينما تقوم الثانية بحراسة الأسواق والمنازل وملاحقة اللصوص. ومن الطريف أن الإدارة الإسلامية عرفت نظام مكافحة الحرائق ذلك أن التجار في القاهرة ودمشق وبغداد وسائر المدن، كان عليهم أن يحتفظوا بأوعية كبيرة مملؤة بالماء خارج حوانيتهم لتستعمل في إطفاء الحريق، على أن وظيفة المحتسب تبقى الوظيفة الأكثر أهمية لأنها كانت الأساس في تنظيم المجتمع.

١ـ نشوء نظام الحسبة

عرفت الحضارة اليونانية نظاماً إقتصادياً انتشر مع السيطرة اليونانية في بلاد الشرق، وكان يعرف باليونانية باسم آغورانوموس (Agoranomos) «صاحب السوق» وكان عمل هذا الموظف الإشراف على أمور الأسواق، وقد استمرت هذه الوظيفة عند الرومان والبيزنطيين. ولما جاء الإسلام وانتشرت راية الدولة الإسلامية في الشرق والغرب أبقى الخلفاء والولاة على هذه الوظيفة، ولكن أطلقوا عليها إسم «الحسبة» وعلى صاحبها إسم «المحتسب» على أن المسلمين وإن اقتبسوا هذا النظام عن النظم السابقة فإن ذلك لا يعني أنهم أبقوا عليه كما هو، بل أدخلوا عليه الكثير من المهام والتعديلات والمبادىء المستمدة من تعاليم الإسلام، على اعتبار إن مهمة «الأغورانوموس» كانت مستمدة من التعاليم والبيئة الوثنية ومن ثم المسيحية[٥].

ولا شك بأن نظام الحسبة قد نشأ قبل اتساع رقعة الدولة الإسلامية، فقد عرف أيام الرسول محمد ﷺ، حيث أن الرسول كان يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر اقتداءً بالآية الكريمة «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» والآية الكريمة التي تقول «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[٦] كما يستفاد من الأحاديث الشريفة أن الرسول الكريم كان يكافح الغش والمنكر قولاً

---

(٥) حسان حلاق: المرجع السابق ص ٦٤

(٦) القرآن الكريم: سورة آل عمران الآية ١٠٤ ـ ١١١